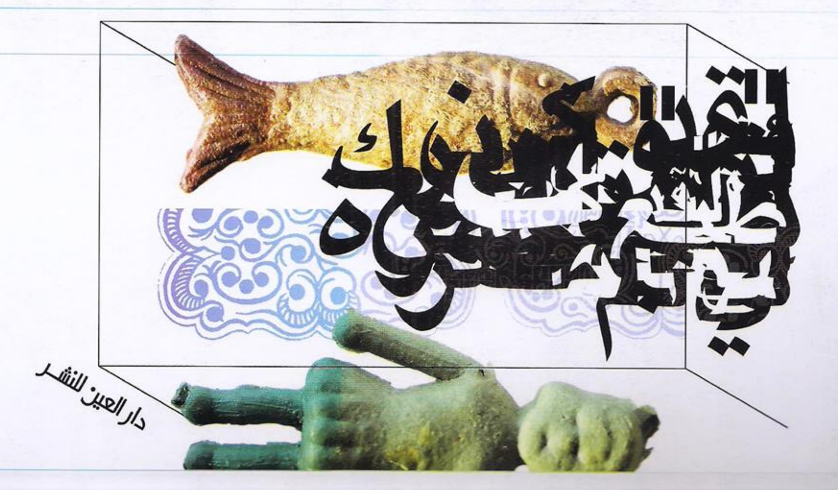
بياصة الشوام

رواية

أحمد الفخراني



بياصة الشوام

رواية

أحمد الفخراني

دار العين للنشر

"واعلم أنك العين المقصودة، فما وجدت الأسباب،
إلا بسببك، لتظهر أنت"

الإنسان الكامل- ابن عربي

بيت اللذة

كنت في التاسعة عشر من عمري، صبيا في ورشة معلمي إدريس، عندما سألته عن عمر الكون، أجاب: ألف ألف سنة.

لم تكن إجابته صحيحة، كل ما في الأمر أنه بدا له رقما ضخما، أقصى ما يستطيع أن يحصيه.

أظن أن هناك رقم أكبر، عصي على الإحصاء، رقما مخيفا، له عينا وحش وفم واسع مهيب، يبتلع الأرقام كلها والفزع والموت والشرور والأمراض والحرائق والمجازر والتيه والجنون والانحرافات والشهوات في جسارة رهيبة، هذا الرقم هو الحارس الأخير للسر، فالأسرار يجب أن تكون محفوظة وغامضة إلا على مصطفين، يتجاوزون المسافات الطويلة والاختبارات الوحشية، يمتلكون من قوة الإرادة وذكاء الروح وتمام الهمة ما يكفل لهم الوصول دون سواهم.

يوقن عم إدريس أن أسئلتي غبية، لبلاهة رافقت ملامحي ولعيني الخاملة النعسة والمطفأة، دون أن يدري أني أشتعل، فلم يأخذني على محمل الجد. وكنت أظنه يعلم كل شيء، لقدرته المبهرة على خلق تماثيل بديعة من الطين.

حين سألته: لماذا يتعاقب الليل والنـهار في تكرار لا نهائي؟ قال مستخفا: كي تصير آية دامغة على من كفر، وكي ينتبه الأغبياء من أمثالك يا سعيد.

قلت: ربما الخلق معذورون، فعندما يرون الشيء نفسه منذ ألف ألف سنة، لن ينتبهوا إلى المعجزة، ولن يحل النور على أذهانهم بل العمى. ألهذا لا يغضب الناس من العتمة المخيفة والضوء القاصم؟

قال إدريس: ستظل حمارا يا سعيد. أكثر من عشر أعوام، ولم تتعلم شيئا عن الصنعة، ولم تسأل سوى الأسئلة الغبية.

أنظر إلى أصابعي، التي تشتهي مثله أن تخلق، ثم أُحني رأسي إلى الأرض في خجل يظنه بلادة.

2

عندما يحل آذان المغرب. يحمل صوت المؤذن القادم من جامع العطارين إشارة بالتوجه إلى الله. لكن عندما يعبر إلى بياصة الشوام، حيث ورشة إدريس، فكان ذلك يعني أن نخلي المكان فورا، ما هي إلا نصف ساعة حتى تغلق أكشاك باعة الملابس المستعملة، وطاولات إصلاح الساعات، وورشتنا، والمقاهي البائسة، ثم يأتي البامبو ويصحبته

عصبة من الأشقياء والكناسين، ليكنسوا الأرض من الوسخ والفقراء، وتضاء المصابيح الملونة، وترش البياصة بالماء والعطر، وتعلق الزينة وتصعد رائحة الشواء، وتصدح الموسيقى.

نختفي كي لا نزعج برائحة الفقر العربات الفارهة التي تأتي من آخر الدنيا لزيارة مطعم ملك السمان. فذلك هو العهد، في النهار بياصة الشوام للجميع، أما في الليل، فهي متاهة لا يدخلها أحد إلا بإذن اثنين على عرش: ملك السمان المختبئ من غدر الزمان خلف عتبة عالية ومسدس محشو. والبامبو، ملك الليل وحارس ملك السمان، الذي يتقاسم معه ليل البياصة.

يعمل المطعم يومين في الأسبوع، وفي الأيام المتبقية، تتحول أكشاك الصفيح لباعة الملابس المستعملة إلى أوكار للدعارة والمخدرات، يديره البامبو من فوق عرش.

كنت أتلكع قليلا قبل مغادرة البياصة، لأشاهد العرش الذي ينتصب فوق ألف زجاجة بيرة مثبتة بصمغ قوي ومغطاة بقش، وهو كرسي أثري سرقه عنوة في وضح النهار من أحد باعة الأنتيكات في العطارين. لا يكتمل بهاؤه إلا بجلوسه فوقه، ليرى الجميع من عل.

لم أكن أرغب في الرحيل، فالليل المرعب يعني العودة إلى بيت أمي.

3

كانت أمي مزروعة في ركن النافذة كأصيص. للنافذة الواطئة إطار مطلي بزرقة شاحبة وكئيبة، شقوقه مساكن للنمل، وفي ركنه القصي هذيان عنكبوت. عيناها نافذتان إطارهما الكحل الرخيص، تعبر فيهما أشباح الشارع ولا تُفلتان ما بين السماء والأرض. تراقبان كل شيء كأنهما لا تريان شيئا، لو انهد العالم لما رف لها رمش.

كل يوم يتكرر المشهد نفسه، تفرد ذراعها في الهواء، ثم تلتقط شيئا لا وجود له، تكور عليه اليد بلطف أولا، ثم تقبض عليه بشدة، كأنها انتزعت شيئا ثمينا من العالم، تتشممها كمشته كريم النفس. تقربها من فمها ببطء، تنكشف شفتاها المريعتان من أثر الدخان عن فجوة فارغة من الأسنان، ثم تمضغ الهواء، قضمة واحدة بتلذذ بالغ، لا تلتفت للتعليقات الساخرة التي تنتظر المشهد كل يوم، لتطالبها بجزء من عطية السماء، تُطير ما تبقى من شيئها الثمين بامتنان، ثم تضحك على رفرفة أجنحة لا وجود لها.

الغمزات والضحكات سياط لا ترحمني، تشق ظهري لا ظهرها، لم أقبل يوما نعتها بالمجنونة، رغم أن ذلك حقيقة الأمر. تشاجرت من أجلها مرات عدة، لكني يئست، في كل مرة أُهزم فتَضحك، أُجرح فلا يحركها الفزع، أدخل المنزل غاضبا، فلا تتغير كماء آسن، فأغلق علي غرفتي وأبكي.

لأمي حاجبان غليظان، وقسمات قاسية مخيفة، تجاعيد وجهها كخريطة كنز بالية. وشعرها مهوش فضي، الخصلات الرمادية التي تتخلله تضفي على جنونها مسحة رعب، سرعان ما ألفها الشارع، فصارت نكتة اليوم اللطيفة. أما عيناها فكانتا دوما ثابتتين لا تزيغان، ولم أكن أعرف أذلك علامة العقل الأخيرة، أم الجنون الكامل؟ كانت كلماتها -التي صارت أندر مع الزمن- شديدة الاتزان.

لم أفهم أبدا ما الذي كان يجذبها لتراقب الزقاق الضيق ساعات وساعات، تبدو أحيانا بلا نهاية، وفي أحيان أخرى لا تجلس أكثر من نصف دقيقة، ثم تدخل قائلة بعد أن تسب المارة: ينعل أبوكوا.

مرات كانت تدون كل شيء في كراسات، لا تفلت شيئا، لا نميم النسوة، ولا دبيب النمل، لا ضجيج المقهى ولا أثر الأقدام، لا لعب الصبية ولا تلصص القطط، كانت تستمع إلى طرق الحديد في الورش، مناشير الخشب، كمن يستمع إلى أم كلثوم، وتبتهج بشرار اللحام كطفل يراقب ألعابا نارية، تصعد إلى السطح، تمزق الكراسات ورقة ورقة، ثم تطيرها، وتحزن لأن الأوراق تسقط إلى الأرض بينما كانت تحاول جاهدة دفعها إلى السماء، ثم تهبط كسيرة الفؤاد، ولا تمل من المحاولة.

كانت الأوراق الساقطة في البداية مثار رعب، فقد كُتبت بحروف لغة غريبة، تبدو عربية وهي ليست كذلك، ظنوها سحرا ولعنات، لكن مع

الوقت أدركوا أنها ليست إلا حروف الهذيان.

جلست على المقهى المقابل للبيت، والقريب من بياصة الشوام، في زقاق داخل زقاق كثقب إبرة في كومة قش العالم، لا أملك مكانا سواه يقبل أن أؤجل الدفع.

أشحت نظري عنها متأملا أصابعي الملعونة، وهبت شهوة الخلق كإدريس، وليست عاجزة عنه كما يظن، لكن الناس سيئو الطوية، تخبرهم أنك ستنحت عصفورا، فيجيبونك أن فكرتهم عن العصفور قد اكتملت ولا حاجة بهم للمزيد، تقول لكن عصفوري شيء آخر. لماذا يغفرون شيئا غريبا كأصابع جميلة وفاتنة على جسد قبيح ولا يغفرون لي تماثيلي التي لا تشبه العصافير؟

أخرجني من تأملي لأصابعي، قفا مهين، من طفل نعتني بابن المجنونة، ثم اختفى. انتفضت من على الكرسي كملدوغ، سخنت رأسي غضبا، باحثا بعينين زائغتين عن الطفل، محاولا صم أذني عن سوط الضحكات في الزقاق.

وجهت همتي وغضبي نحو النافذة، عازما أن أنهي الأمر، كانت تؤدي فقرتها اليومية، تفرد ذراعها في الهواء، لتستقبل رزقها الخرافي. أمسكت يدها، وعنوة فتحت قبضتها المكورة على الفراغ، صرخت فيها: لاشيء.. لاشيء في يدك، أتفهمين؟ نظرت إلي ببراءة وارتباك، كأنها تخبرني: أعلم.

تراجعت خجلا خطوة أو خطوتين قبل أن أضيف في عناد: سأغلق تلك النافذة إلى الأبد. ثم صرختُ مجددا: ادخلي.. لقد اكتفيت من أن أصير فرجة الشارع. رغم يقيني. أن صراخي وإصراري على كشف جنونها جعلانا بالفعل فرجة الشارع. دخلت أمي طائعة. أثار ذلك حزني وشعرت بمقت بالغ لكل شيء.

عدت إلى المقهى المقابل للبيت، طلبت حجرا وعنابا ليلطف غضبي، فكرت أن أعود لأعتذر، أن أركع تحت قدميها لأخبرها أن تفعل ما تشاء، رغما عن الشارع وناسه القحابي.

كبلني الكبر ورماد الغضب والجبن، ثم سمعت صراخ النسوة، ورأيت نور حريق على السطح، جسد أمي. تسمرت مكاني من المفاجأة. كان جسدها المشتعل يترنح، ليسقط من فوق السور، أكانت تظن أنها ستدفع نفسها إلى السماء لا الأرض؟ لم تسقط أمامي مباشرة، لكني لا أستطيع تذكر هذا المشهد إلا وجثتها تحت قدمي، وعيناها مثبتتان علي في غفران مقيت.

كانت نظرات أهل الشارع حكما بالإدانة لا يقبل الاستئناف: "لقد قتلتها". إلا ثريا. التي خرجت فزعة بقميص النوم. احتضنتني دون خجل من فرجة الشارع، قائلة: "يا ضنايا يا بني".

كانت الدنيا تتشـقق على صدري كبيضـة في ضخامة القمر، صفارها اللزج، مزعج، شديد القذارة، يلطخني بالكامل، لم أتحمله، إلا بالصمت،

السكون، التحديق في جسد أمي بلا هدف أو محاولة للفهم، محتميا بحضن ثريا من العالم. كان سوتيانها بديعا.

4

أفكـر في أن البدايات دائما حلوة، فلم صـارت تقبض قلبي كاقتراب الخواتيم؟

الأن خاتمة أمي كانت بداية لقصتي المفزعة؟ حتى الآن لا أعرف كيف سترويها، هل ستحذف معاناتي، أم سترضي نزعة القراء للمونولوج والميلودراما؟ أنا لا أعرف معناهما، ستضعهما على لساني، وسيذوبان كما تذوب سنة الأفيون الحلوة، لكن قل لي، من منا لا يرغب أن يصعد فوق مسرح ويثرثر بمنولوج طويل وزاعق عن حياته؟

5

دُفنت أمي بلا عزاء، لكن أهل الشارع تكفلوا بمشقة الدفن، كي يطمئنوا أني سأحمل عنهم صليب انتحارها إلى الأبد.

لم أبـك. كأن مقلتي قدتا من حجر، ربما كنت ممتنا قليلا للخواء الذي نصب أبراجه في روحي.

ارتجفـت لرؤية النافذة خالية من صـورة أمي، عبرت متثاقلا، وقفت

لثواني أمام باب الشـقة، أخرجـت المفتاح بتردد، لا إضاءة، أفزعتني قطة قفـزت من سـلة القمامة وبعثرت محتوياتهـا، لم أفلح في إيـلاج المفتاح في البـاب من المـرة الأولى، فتحت البـاب ببطء، لكني لم أتخـط العتب. بدا البيـت مقبضا، كأنه يخفي منتقما غاضبا في كل ركن. أو ربما كنت أشـفق على نفسي من تبدد الأمل الشـاحب في أن أرى أمي بالمنزل، كأن لا شيء حدث، ثـم أواصل المسـير والحياة، وتواصـل جنونها الطيـب بالتواطؤ ذاته.

غمرني الضوء من الجهة المقابلة. انفتح باب ثريا، ببطء، كما تومئ فتحة السوتيان عن الكنز. هكذا جاءت، دون سعي أو طلب، استدرت بجسدي مسحورا لأعبر الهوة الفاصلة بين الحلم والحقيقة. كان حنان عينيها المشفقتين شاسعا وكريما كالهواء والماء.

انغلق الباب علينا، قميص نومها الأسود يضاعف من طيبة جسدها الممتلئ وإثارته، تكبرني بعشرين عاما، دون كلمة أمسكت يدي، فعبرتُ بخفة إلى غرفتها، قالت بعينيها: "هئت لك"، ولم يكن بي جلد أن أكفر بنعمة الله، خلعت قميص نومها، كان جسدها مضيئا كفنار في لجة بحر مظلم، شعرها ليل أبدي، وفي عينيها الحلوتين نسيم صيف، وفوق صدرها ينتصب جنديان متأهبان في نوبة حراسة لبرجين من عاج ومرمر.

تلك مبالغة مقرفة، لا يكتبها إلا مثقف مثلك، بل قل: كان لها ثديان يترجرجان كأطباق المهلبية الحلوة.

اندفعت نحوها، جائعا، نهما، وجريحا، فأطلت الأنوار وزفتنا المباهج، وهبطنا من عالم المثال إلى عالم الممكن، كانت مرتي الأولى التي تتحول فيها صورة في مخيلتي إلى حقيقة ماثلة، وظللنا طيلة الليل هكذا، ما بين فرح وضحك ولذة وعتاب وصعود وهبوط، ما بين قاع المتعة وأعتابها العلية. أين كنت قبلها؟ كنت في عماء فأبصرت. وصار جسدي خفيفا كطيور الله، كأني جوهر بلا بدن، روح شفافة، ولم تعد مملكتي من هذا العالم، وبين فخذيها نجوت، وهناك بكيت، بكاء مرا وحقيقيا وبلا أسئلة، كأن الجراح كلها قد تطيب، كأني لو خضت أبعد سأردم النبع السري للحزن.

لكن ما أن انتهينا حتى أطل الذنب كأفعى، تنهش وتفح، وتنشر السم في عروقي. فعاد العماء وقبض الخواء على روحي، فلا أرى إلا ثقل هذا الجسد وقذارته، وشعرت باحتقار شديد لذاتي ولها، ألقيت اللوم مرات على خذلان إرادتي، ومرات على غوايتها.

لم أقل هذا كله، فمن أين لي بلسان بليغ؟ أنت ستضعه على لساني الكليل، ليذوب كما تذوب سنة الأفيون الحلوة. كل ما فعلته هو أني انتفضت من حضنها فجأة، ارتديت ملابسي، ودون أن أنظر إليها، أو أتفوه ولو بكلمة شكر، غادرت. حرصت أن يكون إغلاق الباب مدويا كصفعة ازدراء وغضب، لكن لم يفلح ذلك في أن يرد عني كراهيتي لنفسي، وشعوري المضاعف بذنب الزنا وجثة أمي لم تبرد بعد في قبرها، كنت أعرف وجهتي: سأذهب إلى الله.

6

كان الطريق إلى جامع العطارين مكتظا بيتامى الله، ضممت رعبي الهائل من الخذلان في قبضة يد تعتصر اللاشيء، وخطوت خائفا إلى الرجاء، كانت يدي المضمومة ترتعش، المطر منحبس كبول في مثانة، القمر محجوب بألمه عن نور الخلق، تجاهلت ألمه بخبث كورقة أخيرة إذا لم تقض حاجتي. لم تحجب براءتي رغم الذنب الذي يثقل ظهري، وكرامتها أني أعرف أحزال القمر ولو كان محاقا.

توقفت مرة أو مرتين لأركل حجرا وهميا، رغم أن لا شيء سوى ضيق الزحام، ولا مسافة لركل حجر، نظرت إلى اللافتة المضيئة التي تحمل اسم الله، والتي كانت تغمر قلبي بالسعادة، لكن تلك المرة، قُدَّ قلبي من حجر، لا شيء يخترقه، ولا لطيفة تعبره، عزوت الأمر إلى ذنبي.

وصلت إلى باب المسجد، انحنيت لأخلع نعلي فانشق قلبي عن خواء مخيف، قلت أتوضأ، ثم مرقت بين منتظري الصلاة وصوت مقرئ القرآن يمزقني: فلا اقتحم العقبة؟

أتفهم تلك الآية؟ إنها تشعل بي غضبا خفيا. ألايوجد نعيم إلا في المستحيل؟

تعثرت في أحد النائمين المطويين كطي السجل للصحف، اعتذرت، لكن النائم لم يستيقظ، بدا كما لو كان غارقا في بحيرة من تعب، كلما تذكرته،

ارتفعت في صدري نيران الحقد، تمنيت لو حصلت على نوم كهذا، يلفه الصمت والسكون، يرفع المشقة والقلم والأسئلة.

انتظرت أن يغسلني سيلان الماء وطزاجته، لكن لا شيء، عدم على عدم. لا الماء يرق القلب، ولا الأذكار تبلل اللسان، أوتعيد وصلي بالله. انتظرت حتى يأتيني في صلاة السنة، لكن ما إن رفعت يدي للتكبير، حتى انطلقت ضرطة صغيرة، حاولت إنكارها، اعتبرتها علامة رفض ساخرة، لم أعد إلى الميضة، بل إلى باب الخروج، ارتديت حذائي. لم يلحظ أحد نكوصي، تظاهرت أني نسيت شيئا ما، ومنحت أملا لمراقبين وهميين أني سأعود.

حُمت حول أسوار المسجد كلص، طُفت حوله عدة دورات، حتى انتهيتُ إلى الجلوس متكئا على السور، لم تكن صلاة العشاء قد أُذن لها بعد.

قرصني الجوع وزاد من خواء ألمي ولا معناه، فكرت أن أشتري رغيف سمين ساخن، لكن أذني وروحي كانتا معلقتين بالمسجد، كان للمقرئ صوت عذب، طالما فتنني، لكن حينها، كان قلبي مغلقا كخزانة صدئة ومنسية، خبيئتها مخيفة، فلا أعرف ما وقر فيه: نور أم أفاعي، الله أم خواء الخذلان.

عند الآذان، سألني شحاذ أن أعطيه مما أعطاني الله، فأشرت إلى قضيبي، ثم ندمت، هرولت وراء الشحاذ المذهول والساخط، أعطيته خمسة جنيهات، هي كل ما تبقى في جيبي.

راقبت المارة بعين لاهية وحسودة، أما القادرين على الدخول إلى المسجد فكنت أرشقهم بعين النقمة، ووددت لو منعتهم.

أُقيمت الصلاة ولم يُقم شيء في قلبي، حاولت التباكي مع سماعي للتكبيرة الأولى. ثم حاولت مجددا مع هذا الصوت البطيء والحزين، لبسملة الفاتحة، لماذا تأتي الاستعاذة قبل البسملة؟ أفكرت في ذلك من قبل؟ بسم الله، لكن ما اسمه حقا؟

انتظرت الفيض من الرحمن، والقبول من الرحيم، ثم بلغت اليأس التام مع انتهاء الصلاة، وكدت أن أرحل، لكن شيئا غامضا تدفق من شق خفي في قلبي، ربما غواية الندم على ما فاتني من اللذة، هرعت من جديد إلى داخل المسجد، قلت سأصلي مع أول جماعة.

توضأت فشعرت بلذة تساقط الوسخ الوهمي عن جسدي، أطنان وأطنان، لأي ذنب؟ صليت بخشوع بالغ. لم أنجح في البكاء، لكني شعرت به حاضرا، رقيقا، يعفو ويغفر ويتفهم. أفكر الآن، أن من السذاجة ربط وجوده دائما بدموعي في السجود. قلت: يا حي، يا حي، يا حي. احي موتاك فالأمل شح، يا قيوم، يا قيوم، يا قيوم أقم نجواك، فأنا ضئيل الهمة والإرادة، لا مكان لي في الأرض، فكيف تنزع عني السماء؟ الطريق شديدة الوعورة، فكيف أخطو إلى ما لا سبيل إلى معرفته؟

لم أقل هذا كله، أنت وضعته على لساني، كسنة الأفيون. بل صرخت: يااااارب. صرخة عفية ويائسة، جرحت حنجرتي العطشة، ربما لهذا لم تمكث

في الأرض ولم ترج السماوات، أفعلت؟ لكنها أذهلت المصلين والذاكرين والنائمين الغرقى، وللحظات كأنها سمرت كل شيء في مكانه، الأرض والزمن والناس. شعرت بالأبصار تحرق جسمي، وانغرست النظرات المحدقة كسكاكين، كأنهم يسمعون الكلمة للمرة الأولى، في مزيجها العجيب الذي جمع بين الأمل واللوم.

أنهيت الصلاة مسرعا وخجلا، رأيت رجلا ضخم الجثة، يرتدي جلبابا أخضر مرقعا، عنفني بيديه الغليظتين: "تأدب في بيت الله" هل احتجت إلى يده لأدرك غلظته؟ أعرف غلاظ القلوب من أعينهم التي تشبه الأحجار، ومن هذا العجز الذي ينتابني في مواجهة روح من الإسمنت.

كنت أرتعش والكلمات تخرج من فمي: أمن الأدب أن تضربني في بيته؟ دفعته بيدي، كان كل ما أقصده أن يكف أذاه، لكمني بغل شديد في صدري وهو يصيح: "أترفع يدك على رجل كوالدك؟" قلت متلعثما، مستجديا باليتم: "والدي لم يضربني حتى وفاته"

تجمهر المصلون، وأيدوا الرجل الذي صمم على طردي، تشبثت يائسا بالأرض، قرفصت قائلا: "لا أحد يملك أن يطردني من بيت ربنا" ثم لذت بالصمت بعينين خشبيتين، جذبني المصلون من يدي، تثاقلت أكثر، لو قمت لانتهى كل شيء، أربكهم صمودي، سبني الرجل، نعتوني بالجنون، لكنهم استسلموا وأبعدوه في النهاية. ولم يُرتق انتصاري الصغير مَزق كبريائي.

اقترب مني شيخ الجامع. رأيت في عينيه شفقة، لم أدر إن كانت زائفة

أم حقيقية، ربت على كتفي، قال بصوته الهادئ: "ما بك؟"

ترقرق حجر الدموع في عيني قليلا، بدوت يائسا ومنهكا، جلس بجواري، فسألته طمعا: "لقد زنيت يا مولانا.. أهلكت؟" كنت أنتظر حديثه عن باب الله المفتوح للتوبة الصادقة، لكنه حدق في عيني طويلا، قبل أن يخبرني بصوت مشفق: "لن تسلى ما فعلت.. فقد ذقت حلاوته. اسأله الرحمة"

انزعجت مما قاله، قلت في سري: "ينعل أبوك"، ولم أخبره عن سؤالي الحقيقي الذي لو شق شفتي لانتهيت: "أيغفر الله لقاتل أمه؟"

خارج المسجد، نظرت إلى القمر، كان يتوسل، وكنت غاضبا، لكني رققت لحاله وعفوت، هطل المطر بغزارة بالغة، لترتاح مثانة السماء.

7

خرجت مصمما ألا أعود إلى ما فعلت لأثبت لـ"أعمى البصيرة" أن الله ملك الملوك، لن يعجزه أن يمنحني الإرادة.

كان الصقيع يرجف جسدي، والمطر يوقظ تربتي الجافة والخشنة من سبات عميق. انهرت في البكاء، بكاء بدا لي أكثر غزارة من المطر، دون أن أفهم له سببا، كان يروي بذرة شوقي إلى المجهول، بذرة تنمو بشق تربة صدري، كرهت هذا الألم، فقد كان عصيا على الفهم، وسيظل، شوق

يحيل العالم إلى لغز ومكابدة، ويزرع بي أن كل شيء عدم، أيمكن لشخص مثلي، بسيط العقل، فقير الروح، ضعيف الإرادة أن يعرف السعادة، أو ماذا تسمونها؟ الخلاص؟ لا أظنها كلمة دقيقة. فأمي المنتحرة المحترقة مشجوجة الرأس مفتتة العظام، وجدت طريقا صعبا للخلاص.

ما أن فرغت من بكائي، حتى شعرت بصفاء روحي، فتمتمت بأدعية التوبة: "أثق بك وتبت عما فعلت، وندمت، لا تصدق هذا الشيخ أرجوك".

لحظتها شعرت بأن الهواء نبيل، قلت: مثل أنفاس الله. فلتستغفره، فليس كمثله شيء، ولتحذر مما تضعه على لساني. كدت أمسك برضاه، كأني كنت أرى كل شيء للمرة الأولى، الشوارع السيئة في عيني أصبحت بساتين، والناس الضالعة في القسوة والتشنج، كانوا كإخوتي في أبوة الله الشاسعة والحنان المجاني في الدنيا المهلكة. قلت: فراديس الله في كل مكان إذا ما أمعنا النظر وجنته جد قريبة. كنت أشعر بأن قوة إرادتي طاغية كإرادة الكون، لكن ما أن اقتربت من بيتي قبيح الهيئة، حتى فككت الكهرباء أوصالي.

حملقت بنافذة ثريا المجاورة لنافذة أمي، ثريا ليست جميلة، بل شهية وعطرها النفاذ المخلوط عند عطار يملك ناصية الخير والشر يفتك بي، ورغم أن لا أثر له في الهواء، إلا أني كنت أحفظه في سويداء القلب.

تشبثت بإرادتي، وبدأت في تلاوة عدية ياسين.

صغيرا وأنا ابن سبع، حفظت القرآن كله على يد أبي قبل أن يلتهمه قطار، ثم أكلت الدنيا مني النصف، ثم نصف النصف، لكنني تشبثت بالربع

الأخير ومتفرقات منجيات، قابضا على صلتي بالله، أعرفه منذ صغري، يستحوذ على قلبي وعقلي وروحي في هداي وضلالي، دون شيخ أو مريد، لا يفارقني ولو عصيت، لولاه لفزعت من ظلي، وانقضى أملي في أن يمر الليل والنهار بلطف، وأكلتني سباع الدنيا أكلا.

عدية ياسين لم تنجني، تراجعت عن الصعود إلى البيت، وعدت إلى المقهى، قلت: سأطلب عنابا مثلجا، كي ألطف سريان النار، وسأشغل بالي بالاستغفار فأنسى التفكير في ثريا، جلست ولم يكن العناب كافيا. انطفأت النار، فالتهمتُ الرماد، وتعلقت عيناي بنافذة ثريا، وتكدس أنفي بأثير عطرها الوهمي.

ثم ظللت أذكر ثريا، الحلوة، الشهية، الطعمة، بيت اللذة، بيت النار، الصارمة اللعوب، خادمة الفراش، بوابة الدنيا، ابنة الحظ، لم أحص أسماءها من قبل.

ثم صعدت، كانت ترتدي كومبليزون أسود يكشف شق الثديين، دفنت وجهي في صدرها المهيب وغبت.

8

خوفا من أن أهجرها إذا ما فرغنا من اللذة، صار لثريا عادة عجيبة، أن تمسك بيدي، تتأمل أصابعي، تقبلها ببطء، تلحسها، وكان ذلك يقينى

بجوارها، ويملأ خوائي بشيء يشبه الهدهدة. كنت مهووسا بجمع الطين، أكثر من عشر أعوام لم أفلح بشيء في ورشة إدريس إلا تخمير الطين لتماثيله، أكرس طاقتي لجمعه في عبوات بلاستيكية وجرادل، ثلث للطين وثلثان للماء، أسحقه بأصابعي لأفتته إلى قطع صغيرة، ثم أحركه، ثم أترك الرواسب لتطفو، حتى يستقر الخليط النظيف، ثم أسكب الماء في عبوة أخرى، ثم أكرر الأمر مرات عدة، للتخلص من الرواسب، منتظرا أن يستقر الطين في القاع، ثم أصفي الماء بقطعة قماش، منتظرا أن أنتج ذهبي الصافي، قطعة طين قابلة للتشكيل على يد عم إدريس.

تهمس ثريا في أذني: أصابعك فاتنة، شديدة الرقة والنحافة، كأنها خُلقت لفنان. أقول ساخرا: لقد حصلت عليها بالخطأ. ولا أخبرها أن ما تكتنزه تلك الأصابع من شهوة للخلق، هو لعنتي، فالعالم سيء الطوية، تخبرينه أن لديك عصفورا، فيجيبك أن فكرته عن العصفور قد اكتملت ولا حاجة به للمزيد، تقولين لكن عصفوري شيء آخر، بل إنه ليس عصفورا أصلا، إنه شديد القبح والأصالة، لا مثيل له، لماذا يغفرون شيئا غريبا كأصابع جميلة وفاتنة على جسد قبيح، ولا يغفرون لي تماثيلي التي لا تشبه العصافير؟

أقلت هذا من قبل؟

لا.. أنت قلت.. لكن هذه مرتي الخالصة.

9

سألتُ ثريا بعد أن فرغنا ذات مرة: أين وجه الله؟ فأشارت إلى النافذة المغلقة.

أربعون يوما، أربعون ليلة، وأنا مدفون بين فخذيها، جسدها حدود العالم، النعيم مقيم في الممكن والفردوس ملء يدي، ما أطيب الجسد والطعام والدخان، لا أغادر المنزل، وعندما تذهب إلى عملها كموظفة بهيئة التأمين، أنام حتى تعود، ولا أذهب إلى ورشة إدريس، الذي لم يسأل كأنه تخلص من عبء ثقيل.

نافذة غرفتها مغلقة، كي لا يراني أهل الشارع، لكن إغلاقها لم يمنع الفحيح واللمز. كانوا يعرفون أني أحل محل الزوج الغائب في بلاد بعيدة منذ سنوات بعيدة.

كلهم اشتهوا الغرفة، ولم تفتحها سوى لغرباء يتسترون بالليل، وكنت أول من تقبله من الحي، وأول من حظي بألف ليلة من الوصل، كل ما كان يتطلب الأمر كي يظل الستر سترا وألا يفح الحقد، ألا أفتح النافذة.

رغم ذلك، فتحتها للمرة الأولى منذ أربعين يوما وليلة مستغلا ستر الليل، يمكن لتلك النافذة الواطئة أن ترصد القمر.

نفثت دخان سيجارتي ثم قلت:

هذا قمر حنون، غفور، متفهم. لا أحمل أي ضغائن نحو القمر، رغم أن حمولتي من الضغائن كبيرة، لو انفجرت لاحترق العالم. أو ربما لن يحترق سواي، أنا نكرة كبيرة، والله والقمر يدعيان حمايتي، لكني شيء يولد كبصقة ويموت ككومة خراء لا يلفتان النظر إلا بما يوفرانه من ازعاج لدى الميلاد والموت، أرغب حقا في سلام دائم مع نفسي، ونفسي ملك الله، والله لا يبالي بالزناة، يأمر برجمهم حتى الموت.

لم أستجب لوعيد ثريا، ولم أغلق النافذة، كنت فقط أفكر ما الذي فتن أمي في الزقاق، كي تراقبه كل يوم، لا شيء سوى الرتابة والسكون، البؤس عينه.

عندما رآني العابرون لصلاة الفجر، تعوذ أحدهم من الرجس، حملقت فيه بتحد، قائلا: "نعم.. أضاجع ثريا، وسأضاجع أمك إن اعترضت" وضع السائر وجهه في الأرض، ثم مضى، لابد أن ما ارتسم على وجهي كان مخيفا.

في اليوم التالي، لم أرصد القمر من النافذة. قلت: لقد أفل وأنا لا أحب الآفلين.

مملكة الليل

1

عندما هطل المطر في تلك الليلة، انشرح قلبي، صوت أم كلثوم القادم من مكان قصي ظلل الليل بروح راسخة في المحبة، ولما لم أكن راسخا في شيء، فقد هزني بعمق، وجعل قلبي يهفو إلى أشواق غامضة، فاتجهت مجددا إلى النافذة.

كنت أنفر من الست دوما، لكن روحي في تلك اللحظة كانت هشة، كأنها تتفتح، لقد فاجأني هذا، كان لحن رق الحبيب يرتق ثقوب العالم من حولي، ويجسر المسافة المفزعة بين المثال والممكن، الآسر في رق الحبيب، أنها مشيدة على الضعف والنقصان.. أهناك درس أكثر بلاغة عن الكمال؟

فيما بعد، ولطيلة ربع قرن، سأستمع إلى رق الحبيب ألف مرة، كلحن

يتوالد من نفسه، مستسلما للفيض، حيث تحدق عيني نحو اللاشيء، وتجوب بروحي كل المعاني، فأقع في الحيرة، فبطريقة أو بأخرى تبدو الأفكار كلها صحيحة، ألهذا كل شئ على خطأ؟

يا منافق.. أتضع أسئلتك على لساني، ثم تقول لي أجب؟

قفزت من النافذة الواطئة إلى الشارع، لأنعم بغسل المطر، الذي صنع من الوسخ والتراب بركا صغيرة من طين، تقلبت فيه، وغمرتني السعادة، لا أسئلة، ولا ألم. وكان صوت أم كلثوم يأتي من هاوية في السماء ومن شقوق الأرض تأتي. لو لم تولد الست لاخترعناها.

توقف المطر، تتبعت صوت الست إلى البياصة، هذا محرم في الليل، لكني كنت أتبع شهوة أخرى، شهوة أناملي، وكانت أقوى من الخوف من البامبو، لابد أن خلق الناس كان مغريا أكثر من عواقب قذفهم في عالم من الحيرة والألم. ألم أحذرك من قبل؟

للبياصة ثلاثة مسالك. أقصر الطرق هو الذي اتخذته من تحت بيتي في الزقاق الصغير إلى الشارع الرئيسي الذي يبدأ من جامع العطارين، أنحرف يمينا بعد أن أعبر زقاقا آخر بجوار مخبز، أحب رائحة خبزه الطازج.

عبرت هذه الطريق طفلا مرات، ولا زلت أذكر مرتي الأولى خلف سور بياصة الشوام، ولم يكن متاهة محرمة كما هو الآن.

كنت متعلقا في ذلك اليوم البعيد بجلباب أمي، وفي فمي بايب لعبة، حينها بدا كل شيء عملاقا، وكنت أرى تلك المساحة الضيقة من الأرض كمدينة كبيرة.

كانت المرة الأولى التي أشاهد فيها هذا العدد من الساعات، ساعات يد، حائط، ساعات عملاقة، ساعات تلعب الموسيقى وتطلق العصافير والزمن. ساعات قديمة وجديدة وأثرية، لها وجوه وحوش مخيفة، وجوه آدمية وحيوانية.

أتذكر بوضوح واحدة غريبة لم تفارق ذاكرتي، لها شكل قرص الشمس، تعكس قاعدتها ألوان الطيف. وأخرى يحملها رجل معذب يحمل الأرض، كنت أشعر أن بداخلها أرواح تهيم، خيالات أطفال شاخت مع الوقت، كما يشيخ الضوء والرجال والأنوثة والفتوة والشباب والبهجة والعنفوان والضحك وجمال أمي.

وكان لأمي يد رقيقة ظاهرها النعومة وباطنها القوة، تقبض علي فلا تفلتني، تطحن عظام يدي الصغيرة لتمنعني من الذهاب بعيدا كي لا يلتهمني القطار، لكنها في ذلك اليوم، وبعد خطوتين من البيت قبيح الهيئة، أرخت يدها قليلا، وعند سور البياصة أفلتت يدي فجأة. لتخبرني:

"لقد صرت رجلا اليوم يا سعيد.. رجلي"

كنت في السابعة من عمري، لكني كنت فخورا بالتأكيد لأني صرت رجلها، وأدركت بشكل ما أن هذا يعني انتهاء حياتي القديمة، لا ضحك ولا لعب ولا مرح، فقط وجه جاد وحزين كوجه أمي، اتخذته فقط لأرضيها.

أقُلت من قبل إن أمي قبل أن يأكلها الزمن كانت جميلة وبريئة كملاك؟ فاتنة كفاتنات أفلام الأبيض والأسود الوديعات ولها عينان زرقاويتان صافيتان كالسماء، لكنها ستصير مجرد امرأة يقرضها الحزن، كما يقرض الجذام الأطراف، دهسها قطار الوقت ومزقها إربا.

هل قلت من قبل إن أبي دهسه قطار؟

تلك كذبة أمي التي كررتها معها حتى صدقتها لأرضيها، وكررها معها أهل الحي في تواطؤ عجيب، حتى صار ما يُقال سواها كذبة قد تُحرق لها البيوت وتنشب من أجلها المعارك، أبي هرب مع امرأة، إلى بلاد أخرى أبعد من الحي وسور البياصة، في فضيحة ارتج لها الشارع، وفقدت معها أمي القدرة على النطق لفترة من الزمن، قبل أن يعود إليها الكلام على لسان متزن وعقل مختل.

ذهبت بي أولا إلى المعلم إدريس نحات الطين، لقرابة بعيدة بينهما كي يتوسط لي للعمل هناك كمصلح ساعات أو في المقهى أو أي من أكشاك باعة الملابس المستعملة أو بائع سكسونيا سريح أو في مطعم ملك السمان.

لم يكن إدريس ملطخا بالطين كما اعتدت أن أراه بعد ذلك. كان عجوزا أنيقا في الستين من عمره، يرتدي جلبابا أسود ونظيفا، ياقته مغلقة كرهبان الكنيسة، وله لحية خفيفة بيضاء ومهذبة كشيوخ الجوامع، أظافره شديدة النظافة، علق هذا بذهني لأنه أشار إلى أظافر يدي شديدة الوسخ، أتذكر

شكل أصابعه الطويلة والدقيقة والنظيفة، لكن أصابعه المتسخة حين يعمل، تبدو لعيني أجمل ألف مرة.

بدت ورشته الواسعة المكونة من طابقين، واحد للعرض وآخر للعمل، شيئا غريبا وسط أكشاك السكسونيا، كانت له عينين ناعستين، بدتا لي كألف عين، يريان كل شيء في مدينة الساعات.

تفحصني، ثم أشار لي بالاقتراب، نزع البايب من فمي نزعا، بلا اكتراث لهيبتي وأنا أقلد الباشوات، فتح فمي وتفحص أسناني، ثم حدقتي عيني، ثم يدي، كانتا ترتعشان.

عندما أدرك خوفي أفلت ضحكة مجلجلة اختلطت بسعال جاف، أتذكر نفوري من مرآها. فعندما انفتح فمه، برزت سنة وحيدة صامدة وقذرة في تجويف خال من الأسنان، فمنحت سمته الكهنوتي لمسة شيطانية جعلتني أرتجف، بدا لي تجويفه المظلم، كوكر للرعب والأشباح والحيات والخفافيش، الجاهزة للانطلاق في أية لحظة، فصرت أكره أن يضحك.

توسط إدريس لي بالعمل عند المعلم جودة مصلح الساعات. فشلت في تعلم الصنعة، فعيني التي عليها الانكباب داخل متاهة من التروس، كانت تحلق دوما نحو مجهول، فكنت أتسلل إلى ورشة عم إدريس، أراقبه وهو يعمل، مفتونا بيديه الملطختين بالطين، وتماثيله البديعة.

خلال عامين، تقلبت في عدة مهن أخرى، فشلت بها جميعا، أشفق علي إدريس فانتهيت عاملا في ورشته، ولم ينجح في تعليمي أي شئ، فلم أترق

أبدا إلا كصبي يجهز له الطين، بدا عملي عنده كصدقة جارية تشبه الصدقات السرية التي يتعطف بها أهل الحي شفقة على جنون أمي وبؤسي، وكان بإمكانه دوما استبدالي بألف شخص آخر، وكنت أقدر صنيعه.

صغيرا، كنت أراه كرب خالق -إلا عندما يضحك- وبدت لي تماثيله طفلا كأنها تحمل الروح، لكنها قررت أن تخادع البشر.

لكن الآن، لا أظن إلا أني كنت مخدوعا، تماما كما خدع عيناي طفلا حجم البياصة، فهي لم تكن مدينة شاسعة للساعات، بل أكشاك قذرة في مساحة ضيقة كثقب إبرة في كومة قش العالم، يديرها مجرم، وملك بائس وحزين يشوي السمان.

2

الثغرة التي لا يحرسها البامبو ورجاله واضحة كالشمس: بقايا بوابة سور مهدوم.

قال لي إدريس ذات مرة إنه كان سورا مهيبا، أحاط بالبياصة في سالف الأزمان، له بوابة حديدية ضخمة، مفتاحها في يد بواب تجله البياصة، ومهنته، تلك التي باتت سرية، تورث من جيل إلى جيل، وإن السور كان يسمى صائد الألف ألف روح ويخفي تحته جبلا من جماجم الدخلاء واللصوص.

ألهذا تكاسل البامبو ورجاله عن حراسة تلك البقعة العمياء؟

كان السور سعيدا في نوبة حراسته الأبدية، يحكي معلمي، حتى كف

المغامرون عن تسلقه، فبدأ في طرح الأسئلة، هل هو سور أم جدار لنهاية العالم؟ هل يكتفي العابرون بالتبول تحته خوفا، أم لأن لا شئ خلفه سوى العدم. هل يحرس حقا سرا مهيبا، أم شيئا تافها؟ حتى نطق بعبارة مربكة، زلزلته حقا ورجت الأرض من تحته: "نحن قتلة لا حراس"، فانهار في ثوان معدودات.

تسللت إلى متاهة الأكشاك، مهتديا بضوء القمر الضعيف وصوت الست، وعلامات أحفظها في طريقي اليومي إلى الورشة، فتحت باب الورشة بحذر بالغ، أضأت مصباحا جذوته ضعيفة، كنت قلقا، لكن ما أن بدأت العمل، حتى فقدت كل شعور بالخوف، وانغمست في صناعة أشكال صغيرة من الطين، لا أدري عم تعبر.

كانت حلوة، كلها حلوة، رغم أني عندما أقصد أن أصنع عصفورا، يخرج شئ آخر، لكنني كنت أراه عصفورا جميلا، والله العظيم، كنت أراه هكذا.

قلت سأصنع تمثالا صغيرا لأم كلثوم وهي تغني رق الحبيب، لكن كيف أعبر عن الموسيقى الحلوة والهشة، قلت: سأصنع فيلا خائفا، لكنه صار عصفورا له رأس فيل وجسد عصفور وذيل فأر.

سهرت الليلة كلها، أصنع أشياء كتلك من الطين، فقدت كل شعور بالوقت، حتى انشق الفجر، وتسلل الأذان من هاوية في السماء ومن شقوق في الأرض، رفعت رأسي لسماء السقف لثوان، ثم واصلت بهوس بالغ،

صناعة أشكالي، لم أعرف كيف أسميها، كانت تشبه كل شيء ولا تشبه شيئا.

عندما رفعت رأسي مجددا، باغتني إدريس، لم أشعر به، تركت ما في يدي خوفا، لكن سرعان ما سكن قلبي، فلم يكن غاضبا مني، كانت ملامحه تشبه السورة التي تُذهِب الحَزن، تطل من عينيه خفة وطمأنينة وخرافة، بين تجاعيد وجهه تنمو طحالب من عطن. أعجبني تشبيهك تلك المرة. متقعر، لكني أظنه الأقرب.

تفحص تماثيلي دون أن يبدي إعجابا أو نفورا، أمرني أن أهبط معه، أغلقت الورشة، وتمشينا قليلا، كان ضياء الصبح قد تسلل ورفع حرمة العهد عن البياصة.

توقف بي عند بقايا السور المهدوم، وكان المكان خاليا، ثم قال:

"أمك تقرئك السلام، وتوصيك ألا تنقطع عن صناعة التماثيل. ولا تنم"، ثم مضى مبتعدا، قبل أن أراه يتحول إلى نمر هائل مجنح، شديد الضخامة بنابين كبيرين، وعينين كجمرتين من نار، له لون برونزي، وجناحان كسوطين يسوقان الريح.

حلق دورتين في السماء، ثم هبط أمامي مجددا، حدق فيّ بعينين لم أعلم ما يعتمل فيهما: البشارة أم الوعيد؟ ثم تركني محلقا إلى ضفة أخرى، رغم أنه لم يكن هناك من ضفة أخرى. ثم أطبق صمت رهيب على كل شيء، وحلت في روحي دفقة نور مفزعة، سرعان ما اختفت.

لم يزعجني الصمت، بل شعوري أن في استنطاقه حل كل شيء، لكن لا شيء سوى عجز قاس، وشوق عصي على التفسير.

لا تصدقني طبعا، ستظنني مختلًا، لكنك ستصدق أسئلتك المخادعة، وستفرضها فرضا.

هرولت إلى باب ثريا، طرقته بقوة، كدت أحطمه، فتحت وجلة بزيها الصارم، كانت تستعد للذهاب إلى العمل، وكنت أرتجف ملطخا بالطين. لم تعبأ بشيء، احتضنتني دون أسئلة، حممتني بالماء والمسك والصابون. أفرغت مائي بيدها، فنزعت كل قلق.

في فراشها، مسدت جسدي كله وطردت الأشباح من عظامي، وكان صدرها حنانا غير ملتبس بشيء، تركتني لأغفو. صحوت ليلا من نوم الدهر، لأجدها فوق رأسي لم تفارق مجلسها.

قبلت منها تمرة تهادن الجوع وقبلة تبرد الشوق وشربة ماء تلطف العطش، ثم همست: "معلمك إدريس مات"، قبضت على يدي، مستعدة أن تنسيني فزع الخبر بطوفان من اللذة، لكني كنت أفكر في شئ آخر.

سألتها: "أتعرفين ما الشيء الأكبر من القمر؟"

لم تجب، قلت لها: "فرجك" ضحكت فقفزت فوقها، مغترفا من النعم والسعادة.

عاد مجددا صوت أم كلثوم، أكثر رقة وصفاءً، كأنه ينبع من داخلي، في الأربعين من عمري سأدرك أن ما يجعل صوتها وموسيقاها ساحرين وخالدين

هو الصمت، لا الصوت نفسه، وما غناؤها وحركة الموسيقى المقدسة إلا تنبيها لجلال هذا الصمت، ففيه يكمن الكلام الحقيقي، حيث تسمع صوتك الإلهي النادر، وما صوتها إلا ملعقة لتقليب الفراغ والعدم.

لن أقول هذا حقا، عندما أبلغ الأربعين، بل سأقول: الله. كتلك التي يطلقها مُتولِّه حقيقي في حفلاتها عندما يغمر قلبه كامل الانتباه لجلال العدم، فيرتجف. في الأربعين، سأتعلم كيف أولي كامل انتباهي للجنون.

3

لم يكن لإدريس ورثة، ولم يراجعني أحد عندما كنت أغلق باب ورشته على كل صباح، واصلت محاولاتي لصناعة تماثيل من طين، سرعان ما كنت أحطمها غضبا من الفارق الشاسع بينها وبين صورتها في مخيلتي، وما أن تهب إشارة آذان المغرب، حتى أعود إلى أحضان ثريا ملطخا بالطين، لأواصل تمزقي بين عظمة اللذة وفداحة الخواء.

مرت الأيام هكذا، ليل يلج النهار، ونهار يلج الليل، ولا شيء يولد.

ثم أشرق هذا الخاطر في روحي: الصورة في مخيلتي ليست حقيقية أبدا، وإني أعدت صياغتها من أهواء الناس الحمقاء والمحدودة بحدود ما يألفون. شعرت بالذعر، فببساطة: فقدت مخيلتي، ولاستعادتها سأمر برحلة كاملة من الألم، وسأبلغ مشارف الهلاك.

فكرت أن أصنع تمثالا لجسدي، لكني كنت أكرهه، دوما ما كنت

أراه قبيحا شديد النحول. لشعري غزارة هشة مخادعة، كان الجميع يؤمن -عداي- أني سأغدو رجلا أصلع كوالدي، وكنت أؤمن أني سأحتفظ بشعري إلى الأبد، غزيرا وجميلا دون أي أسباب سوى ثقة طفولية في المستقبل، أو إني كنت أراه تعويضا مناسبا عن قبح جسدي ولعنة أصابعي، لكن تلك الثقة الهشة ستسقط حصونها عبر عشرين عاما، وببطء مؤلم، مع كل شعرة أفقدها. لا ذنب قتل أمي ولا فَرِج ثريا المظلم والمنير، بل حدث تافه كهذا: الصلع.

لم أفهم أبدا، لـمَ فضلت ثريا جسدي القبيح على سائر أهل الحي، ربما غرتها براءة روحي ونداوتها حينها، واستنفرت فيها شيئا كالأمومة.

أأضاجع أمي؟ يالأسئلتك الوسخة.

تأملت شعري المتساقط المختلط بطين تماثيلي القبيحة، ثم فكرت في الموت، ثم في أمي، ثم في الوقت، كوحش غيور يكره الجمال ويفني كل شئ عدا نفسه، كي يظل أجمل الأشياء وأقواها، لعله الشيطان الأكبر الذي يكره فتوة الإنسان وشبابه، ويدفعه إلى نقطة حرجة تخلخله وتخرجه عن مساره، ليستسلم جسده للترهل وعقله للجنون، الفن إذن هو تثبيت للزمن، التحدي الحقيقي للثقب الأسود الذي يبتلع كل شيء، أكبر من القمر وفرج ثريا. فكرت أني بصناعتي لتمثال جميل، قد أنجح فعلا في الثأر لشعري المتساقط وعمر أمي المهدور، لكن أي جسد، أهناك أجمل من جسد ثريا؟

أهناك أغبى من أن تجعلني أنطق بكلام كهذا؟

لقد ضللت واهتديت واهتديت وضللت، لكن شيئا واحد أثق به: أنتم معشر المثقفين خونة كبار، تعيدون صياغة كل شيء، كي تُمررون عذاباتكم وقلقكم الشخصي، لكن نحن أقنعة لزهوكم وضعفكم ونرجسيتكم المكبوتة، كيف لفقير جاهل مثلي أن يقول أشياء كبيرة إلا على لسان بليغ، واللسان البليغ ليس لساني، فأنا لم أعرف من الكلم إلا ابتذاله، ومن الحكمة إلا التحايل للبقاء حيا، لكن أنت كراوٍ تتصرف كرب، تجري البيان على لساني وتزلزل به روحي فتنفيها، أنت أجهل من دابة، لذا يُغلق عليكم دائما ملكوت السماء وقلوب البسطاء، لن تعبر قلبي أبدا إلا لو دخل الجمل من سم الخياط، كما أنك تأفل وأنا لا أحب الآفلين.

لم يقل لي سعيد ذلك كله، اكتفى بما قاله للشيخ أعمى البصيرة: "ينعل أبوك".

4

فكرت أن التمثال قد يكون مفاجأة سارة لثريا، فعكفت على صناعته، وعلى عكس ما سبقه من محاولات، شعرت بشيء غريب تلك المرة، ماذا تسمونه؟ الإلهام؟ المباركة؟ لا أعرف حتى إن كان ما صنعته من وحي خيالي أم أُنزل علي.

عندما انتهيت، بعث فيّ ما صنعته شيئا من الحيرة وقليلا من الشجن، وخواءً لا يشبه ما يعتريني بعد قذف اللذة. كان مبعث الحيرة أني لم أعرف

إن كان قبيحا أو جميلا، ولم أعرف إن كُنت قد ثبت فيه الزمن حقا، أم حبست فيه روح ثريا إلى الأبد، فقد نحت امرأة بدينة عارية محمولة على أفخاذ عريضة مقوسة بذراعين ضامرين كأجنحة دجاجة، إذا دققت النظر ستعرف أنه لامرأة، لكن من بعيد، ستظنه بصلة ببطن منتفخة كالحوامل ورأس منحن ينظر إلى سرة بلهاء.

ما أن جف حتى أخفيته بورق جرائد، وحملته إلى ثريا، وفي خطوتي قليل من الفرح والفخر، عندما رأته ثريا، لم تتعرف على نفسها، بل شهقت من الرعب وقرأت المعوذتين، وعندما عرفت أن التمثال لها، غضبت مني وطردتني آمرة إياي أن أحمل "هذا الشيء" معي، وأعود أدراجي.

خرجت من بيتها، حيرانا، فكرت أن أحطم التمثال، ثم جلست محملقا فيه أمام عتبة بابها لساعة أو يزيد، كان التمثال يتأرجح في ميزان عيني، فتارة يزداد قبحا وتارة يزداد جمالا، عزمت على الاحتفاظ به، وفكرت أنه يحتاج إلى بضعة تعديلات، لمسات قليلة من السحر. لكن ذلك كان يعني اختراق حرمة البياصة في الليل مجددا.

تسللت إلى هناك عبر الثغرة التي لا يحرسها رجال البامبو، مثقلا بتمثالي لكني لم أصل إلى الورشة، بل وجدت نفسي أدور وأدور في المتاهة الليلية المعقدة للأكشاك، الآن أدرك أنها لا تكون كذلك في الصباح.

حاولت تلمس طريق العودة لكن لا شيء إلا ظلال باهتة لأضواء وأصداء لموسيقى أشباح لا تحمل الأنس بل الوعيد. دعوت الله أن ينجيني، أرعبني انقطاع حضوره عن قلبي أكثر من الظلام والبامبو، فلما خفت من انقطاع وصل الله، صار القطع نوعا من الوصل، فترقرق في قلبي شيئا من

نداوة الأمل، وانفتحت روحي المظلمة والجافة لهبوب النسيم، وشعرت للحظات أن دعائي بوصله قد أُستجيب.

لكن كل شيء تزلزل عندما عثر علي الأشقياء من عصبة البامبو، طوقوني كذئاب جائعة، وكنت مثقلا بتمثالي، نزعوه مني، وسخروا من قبحنا، لكموني في بطني ووجهي وركلوني في خصيتي، ثم ساقوني إلى مولاهم.

كان جالسا على عرشه، يدخن البانجو بوقار ملكي، منتشيا ومحدقا في سماوات لا يراها سواه، ومهابته هالة طبيعية حول روحه.

كان البامبو نصفا من ود ونصفا من شراسة، بلا أهل أو بيت، هبط على الحي طفلا كزرع الشيطان ورسائل الملائكة، سمرته صافية، بعينين خضراوين، شديدتي النقاء، لكن تناقضهما مع بشرته السمراء، زاده خطرا ورعبا وغرابة.

صغيرا كان أهل الحي يحبونه ويعاملونه كرزق من الله، فقد كان ودودا، يلقي السلام على أهالي الحي والغرباء، يصلي مع المصلين، ويساعد العجائز على عبور الطريق، ويميط أي أذى، ولو كان حجرا أو ورقة، يلبي طلبات الجميع دون أن يطلب أحد، ويساعد في حمل أطنان الأقمشة ومستلزمات الملابس المنتشرة في الحي، وينقل الأثاث إلى محلات الموبيليا، ولا يرد عملا مهما بخس أجره، ويرضى بأي لقمة ولو كانت من بين أحذية الخلق دون طمع في أكثر مما يقيم أوده، لا يرد صفعة متغطرس أو سباب مهزار وقح، وإذا ابتسم حنت له القلوب، فقد كانت ابتسامته الصافية – وفقا لحكايات

متناثرة- تشع براءة وانكسار نادرين ولا مراء فيهما.

تجاوز أهل الحي عن حضوره خطبة الجمعة وعظة الأحد بالحماس نفسه، وتردده المفضوح على المعبد اليهودي، وبكائه بحرقة كمتعبد ناسك في أي معبد وتحت أي ظل، كما غضوا البصر عن نوبات غضبه عندما كان يقذف السماء بالحجارة ولا يخرج من فمه إلا كفر بواح، ولم يفهم أحد تمتماته التي بدت كصلوات غامضة أمام حجر أو شجرة ذابلة أو عمود إنارة أو طير أو قطة، جنون المجذوبين فسر كل هذا الهراء.

لكن شيئا ما حدث ذات مرة، أكسبه ملامحه الشيطانية إلى الأبد، فصار جبّار النهار، ملك الليل، عندما اختفى لشهور وشهور، افتقده أهل الحي لأيام معدودات، ثم نُسي إلا من حكايات نادرة تضع كل منها سببا مختلفا لاختفائه، قبل أن يعود وقد فقد نصفه الودود لتطغى ملامحه الشرسة على وجهه.

لم يحكِ أبدا ما حدث. ربما روى عنه رجل أو اثنان، أنه كان يقول: "لقد عرفت ندائي". لم يعد للظهور بالنهار من حينها، إلا نادرا، وكف عن الكلام أو النظر إلى السماء. أما في الليل وتحت عتمته، فقد كان ينشق من العدم كشيطان، وتستحيل عينيه الخضراوين إلى عيني ذئب، أقسم البعض، أنه شاهد النار تشتعل فيهما.

أسس البامبو، عصبة "أشباح العطارين" يختار أفرادها بعناية، يتكسبون من فرض الإتاوات والسرقة وتجارة المخدرات، يحميه ملك السمان بعلاقاته

النافذة بلواءات كبار، لكن البامبو هو حارسه الأول من عداوات الطامعين والفقراء، وعائلات الصعايدة اللذين لا ينتهي طموحهم في الثراء بعد أن استولوا على مقاليد البياصة من "أولاد البلد الأصليين".

لم يكن الصعايدة يملكون شبرا في السوق، جاءوا سريحة صغارا قبل نصف قرن، ولم يتخط عددهم العشرات، كان السوق قد استتب لأولاد البلد من الإسكندرانية من أيدي الأجانب والشوام، كانوا يُسخِّرون الصعايدة ويسخرون منهم أيضا. كان من الطبيعي أن تجد الصعيدي يلبس نصف بطيخة علي رأسه ويرقص كي يُمتِع ابن البلد، لكنهم الآن في كل شبر من السوق، وكلما هُزموا في معركة، استدعوا عائلاتهم، وأنجبوا المزيد، بالزهد اشتروا الأرض والمحلات وبنوا العمائر، العائق الأخير الذي لم ينجحوا في اجتيازه كان البامبو.

وقفت مستسلما لجرمي المشهود، مأخوذا بهيبته، كان التمثال بجواري يطأطئ رأسه في الأرض كشريك في الجريمة.

هبط البامبو من عرشه، كدت أبول في مكاني، آخر من اخترق العهد، بائع سريح جاء من الصعيد آملا في الغنى، ومستأنسا بأصول عائلاته التي استولت على المكان، ورغم ذلك لم يملكوا الدفاع عنه، لم ينس الصعايدة الحرب التي خاضها "السكندري الأخير" ضد ثلاث عائلات، وخرج منتصرا. علق البامبو البائع المسكين عاريا ومعذبا ثلاثة أيام على عمود في قلب البياصة دون أن يجرؤ أحد على منحه شربة ماء تلطف العطش أو كسرة خبز تهادن الجوع، ولولا توسط ملك السمان نفسه الذي قبل

أن يتقاسم فدية كبيرة مع البامبو، لكان الولد في عداد الأموات، لم يقبل البامبو الفدية إلا مشروطة بعودته إلى بلده، مزفوفا على حمار بالمقلوب حتى محطة القطار.

تقدم البامبو تجاهي بخطوات شبحية بطيئة وواثقة، تَأمّل التمثال طويلا، قبل أن يرشق عينه في عيني، انكسرت نظراتي خوفا ورهبة، لمتُ الله، لأنه لم يستجب لدعاء نجدتي، وعددت نفسي من الهالكين أو المطرودين بعار، لكن فم البامبو انكشف -لدهشتي- عن ابتسامة، ثم قال: لم أكن أعرف أن قاتل أمه فنان.

لم أستطع كبت التأثر على وجهي لذكر أمي، لكنه عاد وقال بصوته الأجش والمعدني: لا تحزن.. أنت فنان.. جن. ثم ضحك وحده على نكتته.

تأمل التمثال مجددا، ثم قال: "هل ضايقك هؤلاء القحاب؟" نظر إليهم زاجرا:

"من الآن وصاعدا سـعيد تحت حمايـة البامبو، فلتنشروا الأمر في البياصة"

تحول إلي قائلا: "بكم تبيع هذا التمثال؟" قلت منافقا: بلا شيء. قال البامبو:

"لكنه يستحق أكثر، لا تخف، قل، سأدفع أي رقم تطلبه" سمعت همهمة أتباعه: "اطلب يا غبي"، قلت متلعثما: "عشرة جنيهات".

ضحك البامبو:

"أنت تبخس حق نفسك يا سعيد.. أنت فنان. سأشتريه بأعلى ثمن ممكن"

قلت تحت أثر نظراته المرشوقة في عيني: "بكم؟"

"حياتك".

ازدردت ريقي، فتابع:

"الآن.. سأعد إلى عشرة، لو رأيتك أمامي بعد انتهاء العد سأشوي خصيتيك وآكلهما أمامك، أما إذا اخترقت العهد ثانية، سأضاجع جثتك أمام أهل البياصة كلهم".

شل عقلي لثانية، ثم بدأت في الجري، وسط سخرية البامبو وعصبته، تعثرت وجرحت، لكني نهضت وواصلت الركض، وعندما وصلت إلى بيتي أدركت أني نجوت، وأني لم أقدر أن مسالك الله محيرة، كمتاهة البياصة. استغفر الله، حذرتك من قبل ألا تضع على لساني ما يحشرني حشرا معك في جهنم، كيف تُشبِّه متاهة بائسة من أكشاكِ الصفيح، بمن ليس كمثله شيء؟

5

خاصمتني ثريا، فلم تستجب لطرقي المستغيث على الباب. شعرت بالغضب، ثم الفزع، كأن لا شيء تحت قدمي سوى فراغ رهيب، لم أكن خبيرا بشأن النساء، ولم أكن أعلم أنه غضب عارض، ففعلت كل شيء،

بكيت وتوسلت، وسببت، ولم آبه بالنفوس اللوامة للجيران المتلصصين على الفضيحة، ثم يئست وولجت إلى بيت أمي، ظانا أن يأسي هو رد بليغ على عنادها وتبدد كبريائي، وأنها ستحسبه قوة.

كانت المرة الأولى التي أدخله فيها منذ وفاتها، شعرت بوجل أقل.

أزعجني الوسخ وهذيان العناكب والحشرات في المكان، كنت مشغولا بانقباض قلبي من هجران ثريا المحتمل، لكن شكرا للوسخ، فقد سرب إلي شعورا طاغيا بالذنب، ذكرني أني أحمل فوق أوزاري ومخاوفي وزرا صلبا لا يتزحزح: قتل أمي.

كانت أمي رغم جنونها -أو بسببه- مهووسة بنظافة المنزل، وبترتيب كل شيء. حتى جعلت منه عملية مستحيلة، يعذبها أن ردم النبع السري للوسخ لا ينتهي مرة واحدة وللأبد، كانت تصرخ: "إنه يأتي دوما من شقوق خفية يحفرها الشيطان" ينفخ نفخة يفض بها غزلها إلى تراب ونمل وأبراص وصراصير وخيوط عناكب، فتنفجر باكية في لوعة، ثم تنكب من جديد بعزم اليائسين بحثا عن شق الشيطان.

قرأت لروحها الفاتحة، ثم حاولت مدفوعا بذنبي أن أنظف المكان، لكن سرعان ما فترت همتي، واعترتني رغبة عارمة في النوم.

حلمت بأمي تقفز من السطح في لفافة من نار، لكن قبل أن تلامس الأرض تحولت النار الهائلة إلى نور يدفعها دفعا إلى السماء. عيناها كانتا مثبتتين على وجهي الملتاع في المقهى، راضية عني، أو قل مشفقة علي،

ووجهها العجوز المرهق عاد إلى جمال شبابه الأول، فاتنًا وغضًا.

شج رأس منامي النمر المجنح، الذي تحول إليه إدريس قبل وفاته، هبط تلك المرة إلى الحي، التهم كل من قابله، كمن يقطف زهورا برية، ثم توقف أمامي محدقا، كمن يفكر في التهامي، ثم عدل عن الأمر، مومئًا بعينيه أن أصحبه إلى البحر، لكنه لم ينتظر إجابتي، بل حلق مبتعدا وحده إلى ضفة أخرى ليغيب، تاركا قلبي مشتعلا بالحسرة والحيرة، فلا هو عبر بي إلى البحر، ولا التهمني لأصير مثله نمرا مهيبا.

قمت فزعا، لا من الحلم، بل من دفقة النور التي حلت بروحي، دفقة عصية، لا أعرف إن كانت حلوة أو تقصم الروح.

هرولت إلى ثريا، ولم أكن في حاجة إلى طرق الباب، فقد كان مواربا في انتظاري، كانت على فراش اللذة، ما أن رأتني حتى كررت ما قالته عندما قفزت أمي من فوق السطوح: يا ضنايا يا بني.

6

انقطعت أربعين يوما أخرى عن البياصة، دفنت شهوة أناملي في جسد ثريا العاري، أتحسس ثدييها بأصابعي، كأني أرتجي النقص وأتوسل نحتهما على هيئة الكمال، لكن الكمال ليس سوى فكرة في ذهني لا تخرج أبدا إلى العالم إلا منقوصة، ولا تشبه أبدا ما أراده الخلق.

أُدخل إصبعين مبتلين بريق الشهوة في الشق المظلم، فأضيئه، أضغط على

الردفين كعجينة قابلة لإعادة التشكيل، ألحس بلساني السرة على بطن لها إيقاع التبة. أفكر في أنها مكان مثالي لفرج إضافي أو بديل عن الشق المظلم والمدفون كسرّ بين فخذين، كجبلين بينهما واد من المخاطر والمشقة.

كثيرا ما أرقني أن الجسدين لا يلتحمان مفرودين أبدا أثناء الجماع، وأن جزءا من جسد ثريا يقبع دوما في عماء، ربما لو كان الفرج مكان السرة. لكن اقتراحي أيضا ليس حلا، ولا يتيح الذوبان ولا كشف السر.

قال لي إدريس ذات مرة، إننا في الأصل كنا نفوسا علوية وإلهية، وإن أجسادنا المنحوتة ببراعة، الهائلة، شديدة الفتنة محفوظة في خزانة بمكان قصي، فوق سبع أفلاك وسبع سماوات، ألم يخلقه في أحسن تقويم؟

قلت: لعل الشياطين، كانت تتخطف أجسادنا ونحن نهبط من سماء إلى سماء، حسدا وطمعا، أين جسدي يا أولاد الكلب، جسدي الجميل المنحوت نحتا، المنهوب نهبا، كم يجب أن نجتاز من الأبدان وجوقات الشياطين وثورات النجوم والأفلاك كي نصل إلى أصولنا السماوية؟ لما تنهشنا الهشاشة والقبح، من يخشى أن نصير فتنة؟

قلت لثريا مشيرا إلى فرجها:

"أتمنى لو صرت مدفونا في هذا الكهف إلى الأبد".

ردت بصوت متململ:

"الرجل يخرج إلى رزقه يا سعيد.. كن رجلي واخرج إلى العالم".

طردتني كفأر ملتصق بمخبئه إلى باب الشقة، بوجه جففته الصرامة

فصار خشبيا متيبسا، لكن عندما رأت استسلامي اليائس، أفلتت نظرة حانية تعد بالجنة، إذا عدت.

لكن أين رزقي؟ لا أحد يشتري مخلوقاتي البائسة، سوى مجنون كالبامبو، لأعلى سعر: حياتي. غادرت العطارين إلى المنشية، بحثا عن عمل آخر.

توقفت أمام تمثال محمد علي باشا، تأملت جمال صنعته، وقلت أهذا ما يبغي الخلق؟ لو قدر لي سأصنع خيرا منه حتى لو لم يشبه صاحبه، وظن الخلق أن فكرتهم عنه قد اكتملت، تمثال لا يكتفي بالصمت وتحت قدميه تجري أنهار من البشر في ماء يغلي، تئن وتتمزق وتبتلعها المتاهة والجنون.

تعبت قدماي من المشي، فقلت أستريح أمام البحر، افترشت الرمل لأفكر في عمل يناسبني، ثم تنهدت قائلا: "قلبي مجروح.. هذا كل ما أعرفه عن العالم".

فكرت في أعمال هزلية، كتفريط الرمان للعابرين، ثم بدت لثواني فكرة معقولة. لو قيض للناس شخصا يفرط لهم حبات الرمان، لربما صرنا أكثر سعادة، لن أكلفهم شيئا، ثم إنه لا أصابع تفشل في تفريط الرمان.

لم أتحمل كثيرا أن أرشق بصري في امتداد البحر اللانهائي والمطلق، هذا يدعو لليأس من الوصول، قمت وتجولت في المدينة، لا أعلم إلى أين ساقتني قدماي، سألت عن الأعمال التي لا يفشل بها أحد، لكن لا مكان واحد شاغر، فقد احتلها قطيع يمكن استبدال جميع أفراده، جرسون في مطعم كشري، صبي قهوجي، بائع جرائد. كنت أرتجي أي شيء يساعدني

على الهرب بعيدا عن البياصة، فكرت أني أرغب أيضا في هجر ثريا، لكني لا أقوى على ذلك، لازلت مربوطا بسرتها، دائرا في فلك حبلها، لو انقطع فلا شيء سيحل تحت قدمي سوى الفراغ والفزع.

ثم فكرت أن تلك المدينة جميلة، عجوز لكنها جميلة، كل ما تحتاجه هو كنَّاس ماهر، الكَنْس مهنة لا يفشل بها أحد، لكن الوسخ دائما في ازدياد رهيب، أكثر من الكناسين وطاقتهم الفردية البائسة. أخُلق الإنسان لشيء سوى أن يقاوم الوسخ؟ لقد حمل جنون أمي حكمة ما، لكن مصدر الوسخ ليس الشيطان، بل نحن، حاملين بذور خرابنا وعفننا معا، ننثرها مع كل خطوة ونفس، نظن في البداية -بثقة طفولية- أننا لسنا جزءًا منه، ولن نكون، ممتلئين بسذاجة النضرة والفتوة والأمل، لكن العفن مقيم، أبدي، أكثر حكمة، ينتظر ساخرا من سذاجتنا ومن تفاهة الإنسان وغروره، ناسجا شباكه بمهل، يهضمنا ببطء، ولا يتكفل مشقة أن يعلن انتصاره، ثم نصير جزءا أصيلا منه، منتجين له، مدافعين عنه بضراوة، ونحن نلهو بوهم أننا كناسين ماهرين.

عدت خائبا إلى بيت ثريا، بعد أن تورمت قدماي، تحتهما جلست تغسلهما بماء وملح، وقالت: غدا، ستجد مسعاك.

تكرر السعي مرات عدة، وكل مرة كان ينتهي بفشل هائل وقدمين متورمتين، تغسلهما ثريا.

قلت لها بعينين حالمتين، وصوت يشنقه الغرام:

"تزوجيني يا ثريا"

ردت بضحكة كالسوط مزعت قلبي:

"لكني متزوجة يا نور عيني".

"أعلم.. يحق لك الطلاق منه بعد غيابه سنوات طوال في بلاد لا يعرف عنها أحد شيئا".

قامت من مجلسها، احتضنت رأسي بكفيها، حدقت في عيني طويلا:

"لن أفعلها مرتين، أنت تحمل الشيء عينه يا سعيد الذي حمله زوجي، لقد رمى بذوره في روحك".

"وما ذاك؟"

أجابتني بهدوء أثار حفيظتي:

"الجنون"

دفعت بطست الماء والملح، أشعلت سيجارة، اعتصرت لساني، كي لا ينطلق بالسباب، قلت بصوت ثقيل مرتعش:

"لست مجنونا" قالت: "ستصير كذلك"

احمر وجهي، ونفرت عروقي، أوليتها ظهري، فاقتربت وأحاطتني من الخلف:

"الشيء الذي يمنعني أن أكون زوجتك، هو الشيء عينه الذي يجعلك معي الآن، أنا أخاف عليك يا سعيد، لقد رأيت كيف يأتي الجنون من قبل، هادئا كلسعة برد، ثم يمتلك الجسد والعقل، نهائيا وإلى الأبد، كوباء

لا شفاء منه، لم أصدق أنه سيبتلع ولي الدين، زوجي السابق، لكنه فعل"

دفعتها غاضبا:

"الشيء الوحيد الذي يمنعك من أن تصيري زوجتي، هو أنك عجوز قحبة".

سُقتها من شعرها بحقد إلى المرآة، صارخا:

"انظري إلى تجاعيد وجهك، ترهل ثدييك، فساد مؤخرتك من استقبال كل عابر"

كان بكاؤها واستسلامها الصامت في المرآة مريعا، ذكرني بوجه أمي قبل انتحارها، حل الرعب في روحي. وانهرت تحت قدميها أقبلهما، باكيا معتذرا ومتوسلا أن تغفر.

لكنها لم تستجب، مسحت دموعها، وانتصبت قامتها، واستعاد وجهها كبريائه الصارم، قالت في حزم مزلزل:

"برة يا بن الكلب"

واصلت التوسل، لكن لا شيء في عينيها سوى الازدراء. قمت مسحوقا إلى الخارج، وداخلي ألف كلب مهان يلعق جراح ذلته، رأيت برصًا يزحف، وينظر إلي بعينيه المقرفتين في تحد، في الشارع صرت، أشهرت سكينًا وهمية في وجه السماء. كان قلبي مجروحا، وكان هذا كل ما أعرفه عن العالم.

النملة والملك

لم تشعرني سكيني الوهمية في وجه السماء بشيء سوى العجز والمذلة، فأرخيت يدي وأسقطت سكين الأطفال تلك، وتركت عيني تلطخ نفسها بوحل الأرض، في انحناء الجبهة، الظهر، في الفقد، في العجز والمذلة، شعرت بالقرب من الله.

ما القرب وما الإبعاد؟ سلبني أمي، ثم أبعد عني الناس بحملي لصليب موتها، كي أصدع واقترب، وما فعلت، ثم أبعدني عنه بقربي إلى ثريا، ثم رفع إدريس مكانا عليا، ولم يبق منه إلا حلما أكثر غموضا وقسوة منه في حياته، وها أنا أفقد ثريا في لمح البصر، مصدر أنسي ولذتي وأماني، بل مطعمي ومشربي، سُدَّتْ كل المنافذ إلا إليه، وحظيت بخذلان الجميع.

الكرب علامة المحبة، ما علامة المتاهة إذن؟ هذا معقد، محير. أأترنح بين نور وعتمة، نهار وليل، أم أسقط في بئر سحيق، لا خلاص فيه إلا بتمام الاستسلام للسقوط؟

تلك الخطط المعقــدة كلها، كانت من أجلي؟ إذا أرادك رب العالمين، هذا يسبغ عليك شيئا ما، لا تعود مجرد شيء يولد كبصقة ويموت ككومة خراء.

كانت تلك القناعة كالقشة التي أنجتني من لجة مظلمة، ودفعتني إلى شاطئ فارتكنت إليه، ولم يكن الشاطىء سوى رصيف مخبز إيديال، أذكر فيه الله كثيرا وأسبحه كثيرا، وتقربني رائحة الخبز الملائكية من أبواب السماء، لكن سرعان ما تحولت الرائحة إلى نداء مربك، وتبخر أمل إدراك السماء، لأفكر في قرصات الجوع.

ولم أكن أملك إلا ثمن رغيفين بالكاد، فاشتريتهما، التهمت الأول في قضمة واحدة أمام بائعه، ثم تواريت في ستر الليل على الرصيف المقابل للمخبز، لمت نفسي على النهم فقرضت الرغيف الثاني كفأر، ماضغا إياه ببطء بالغ، أملا في شبع نهائي، بطن دافئة على الدوام، لا مثقلة فتسد الطريق على صوت الله، ولا خاوية فتصمها عنه.

يقولون إن الجوع طريق إليه، لكنني لم أفهم ذلك أبدا، فما أن يحل الجوع، لا أفكر إلا في الجوع. يصير الجوع إلـهًا.

ما أن تسلل بصيص الشبع، حتى تسرب السؤال.

ما القرب؟ أن تنوي هجران ثريا فتلتصق بك؟ ما الإبعاد؟ أن تقترب فتهجرك؟ ما الحيرة؟ ألا أعرف إن كانت نجاتي في القرب أم في الابعاد؟

تسلل الهاجس كصوت الست، من شق في عقلي البائس، ومن هاوية في روحي الهزيلة: أحببت الخطة، لكن فلتعد لي ثريا. أخفيت الصوت، عن نفسي وليس عنه، فكيف أفعل وهو أقرب إلي من حبل الوريد، يعلم ما نفسي ولا أعلم ما في نفسه، وما أخفيته إلا لأنه طلب يهدم كل شيء، ويعيدني إلى اللجة المظلمة كجثة ممزقة إلى أشلاء تنهشها طيور وحشية.

لطمت حصاة صغيرة مؤخرة رأسي، رفعت وجهي، فرأيت ساعد البامبو الأيمن، حمادة الأعور.

اقترب مني:

"باضت لك في القفص.. البامبو يريدك لأمر هام"

ظننت أنه أراداني ليتسلى بي مجددا، لكني تبعت رسوله دون أسئلة.

كسب حمادة الأعور لقبه عن جدارة، عندما خسر عينه اليمنى في حرب العائلات الثلاث الرهيبة، يقال إنه افتدى بها البامبو من طعنة نافذة في قلبه. فقد كان رغم قصر قامته وهزال بنيته، شديد الشجاعة والإقدام والبسالة، لكن شجاعته كلها طارت مع عينه اليمنى، يقال أن آخر ما رآه بها كان شبح الموت، ففزع فزعا رهيبا، فلم يتبق في عينه اليسرى إلا خسة تدحض كل حكاية رُويت عن شجاعته.

لم نتجه إلى العرش، بل إلى أطلال بوابة السور، ثغرة البياصة.

كان البامبو هناك، موليا ظهره إلينا، ويحمل حجرا صغيرا من بقايا السور،

استدار وقذفه إلي بشكل مباغت، فالتقطته. قال: "احتفظ به للذكرى".

صمت لثواني، ثم واصل:

"لا ينجو من يتسلل إلى هنا إلا بإذن بواب السور، ولقد فعلتها مرتين".

كيف عرف أنها مرتان؟ ولـمَ تركني دون عقاب؟

طلب مني أن أقرأ الفاتحة، ففعلت، دون أن أسأل لمن، ثم دعا بالرحمة إلى روح معلمي إدريس، ثم لعنه وبصق على السور، فتح بنطلونه وتبول تحته، رمقني بنظرة ردت جمود بلاهتي، ففعلت مثله.

قال البامبو:

"لقد كان معلمك شديد الخبث، أخفى عني أسرارا كثيرة. وأقنعني أنك غبي لا تصلح لشيء".

كدت أن أقول إنه لم يتخابث، وإني آمنت بالشيء عينه، لكن آثرت الصمت، وكتمت أسئلتي عن الأسرار التي يمكن لنحات عجوز قليل الموهبة والحظ والحكمة أن يخفيها.

سألني: "أتعرف عُمُر إدريس عند مماته؟"

"سبعون أو ثمانون عاما لا أتذكر، لقد كان عجوزا دوما".

"بل ثلاثمائة عام أو يزيد. كأنه أول من ولد هنا، لا أحد يعرف، فقد أخفى ذلك بمهارة، هو من جلب علم الخياطة ونحت التماثيل

إلى البياصة، ومنه تفرعت المهن ونشأت أكشاك السكسونيا والمطاعم والمقاهي ومحلات الأثاث والأنتيكات وخردوات الملابس، بل ويُقال إنه صاحب أول مكتبة هنا، مكتبة تحمل مخطوطات وأسرار ثمينة، لكن لا أحد يعلم مكانها".

اقترب مني بابتسامة ودودة، هل أقول ساحرة، كيف يكون الرعب ساحرا؟ ربما يمكن له أن يصير في العتمة وتحت الضوء المخادع للقمر.

قال: "لا تجزع.. أنت فنان.. جن.. أتذكر؟"

اقـترب مني، وضع ذراعه على كتفي، ثـم لفها في حركة مباغتة حول رقبتي، محنيا ظهري وضاغطا بقوة كمن يسعى لخنقي.

مازح أتباعه: "ماذا لو أخرجنا روحه، لنعلم سره"

أفلتني ثم أحاط وجهي بكفيه الغليظتين، كان له رائحة الفسيخ النتن، قال:

"أنت من الآن صديقي.. ولك أن تدخل البياصة ليل نهار، دون خوف"

كدت أن أظن أنها حيلة للاستهزاء بي مجددا لولا الحسد الذي رأيته في عين حمادة الأعور الجبانة والخسيسة.

كظل تبعته، أرى قامته المنتصبة غير هيابة من شيء، فوقع ذلك في نفسي ما بين المحبة والرهبة، متغاضيًا عن عرج واضح في خطوته، ما الشيء الأكبر من القمر وفرج ثريا وتماثيل إدريس؟ هيبة البامبو.

فكرت أنه اختارني ضمن عصبة "أشباح العطارين"، هذا أمر جلل ولا يحظى به إلا قلة تتمتع بسطوة المهابة في الحي. حف على قلبي رفيف من الفخر، رغم ما أدركه من وعورة المسلك وخطورته. فما أن تصير واحدا من عصبة البامبو فلا يوجد خط رجعة، ستبتلع مرة واحدة وإلى الأبد في متاهاته، لكني على الأقل كنت أنتظر شيئا حقيقيا، وبصيص أمل ألا أموت ككومة خراء، بعد أن ولدت كبصقة.

وصلنا إلى عرشه، كان تمثال ثريا الذي اشتراه بحياتي جالسا فوقه، كملكة في ديوان ملكها، ألهذا استدعاني، أأعجبه تمثالي إلى هذا الحد؟ كان يرمقه بنظرة عاشق لا لبس فيها.

وضع تاجًا أبلهًا من قش فوق رأس التمثال، وألبسه عباءة سمراء، وزينه بأحمر شفاه ثقيل ومساحيق جعلت منه مسخا حقيقيا، لقد أفسد فني.

جلس بجوار ملكته، ولم أكن متأكدا إن كان مازال ملكا، كان التمثال يتألق بسحر عجيب، رغم كل شيء، يبدو على جموده، كأنه من يتحكم في تلك العصبة، بسطوة فريدة تبدو معهم خطورتهم هينة، وشقوتهم كألعاب أطفال.

باغتني البامبو بسؤاله:

"ما الذي يملكه كل إنسان يا سعيد، غني أو فقير، سعيد أو شقي؟"

فكرت قليلا، ثم قلت:

"كل إنسان يملك عينين ولسانا وشفتين ونفسا مسلطة تأمره بالسوء، عليها أن تتخطى العقبة"

قال بنفاد صبر: "لا تتحامق علي مثل معلمك".

قلت مرتبكا:

"أقسم أني لا أتحامق، كل إنسان يحمل عينين ولسانا وشفتين ونفسا تأمره بالسوء، تهبط إلى الدنيا من فوق سبع سماوات، كي تتخطى العقبة، ولها فرص ضئيلة كي تلتحق مجددا بأصلها السماوي، لكن ذلك صعب جدا، إنه يحتاج إلى نفس عظيمة الإرادة، هائلة الهمة، غنية الروح، ذكية العقل كي تحظى بإيمان راسخ كالجبال، يدفعها لتخطي العقبة، والآية المرصودة له كي يؤمن، تتكرر منذ ألف ألف زمان، عدد تكرار الليل والنهار، لكن نحن.. نحن معذورون.. كيف يتكرر الشيء إلى ما لا نهاية، ثم يطلب منا أن نراه، قد لا تكون إجابتي صحيحة، فأنا غبي قليلا، لم يكذب معلمي بشأن ذلك. وليست تلك الإجابة الوحيدة التي لا أعلمها".

تأثر البامبو بما قلت:

"لست غبيا يا سعيد، بل أصبت، فإذا كان كل إنسان يملك عينين ولسانا وشفتين، ونفسا عليها أن تتخطى العقبة، فتلك هي الإجابة: العقبة تصنع الحكاية، وعلى الإنسان أن يخوض حكايته، كل إنسان يملك واحدة يا سعيد، فمن العقبة تتوالد الحكايات واحدة تلو أخرى كمتاهة،

هربا من العقبة، لا وصولا إليها، أي حكاية في الدنيا ترتجي الوصول فهي ترتجي الموت، والحكايات لا تحب أن تموت، تحب فقط أن تُروى، أتريد أن تصبح من عصبتنا يا سعيد؟"

"بلى"

"ما أجمل حكاية سمعتها في حياتك؟".

"النملة التي خاطبت الملك".

"لـمَ؟"

"لأنها لحدث لم يحدث، هذا ما يجعل الحكايات جميلة"

"أصبت، ولتعرف أن حكايتي عهد، إذا كذبتها سقطت أذنك، وإذا أفشيتها وقع لسانك، والعهد هو أن تصدقها وتحفظها في قلبك، هؤلاء أهل ثقتي وعصبتي وأهلي، أتخيرهم كما تخيرتك، ولهذا لا أرويها لسكارى الحي، ولا يدركون منها إلا القشور. مثلا يظنون أنهم يعرفون حكاية حرب العائلات الثلاث، لكن لا أحد يعرف كيف انتصرت بعصبة قليلة السلاح والعدد على مدد لا نهائي من الصعايدة، كلما قتلت منهم نفسا، جاء عوضا عنها عشرة للثأر"

"وما هي حكاية العائلات الثلاث؟"

"اكتشفها بنفسك. وإذا اكتشفتها فلتحفظها"

"كيف؟"

"بأن تصنع لي تمثالا كبيرا ينصب في قلب البياصة، يخلد انتصاري المهيب في الأرض، يجعله أبديا، كيف نفلت من الموت يا سعيد؟"

"بأن نصير حكاية تروى جيلا بعد جيل، لكن كيف أصنع التمثال وأنا لا أعرف حكايته؟"

"كان إدريس ليفعل"

"لكني لست هو".

قال ببرود وحسم: "فلنعرف إذن.. أما الآن، فأمامك ستة أيام، وسبع ليال. لا أريد أن أرى وجهك دون التمثال"

هل دار حوار كهذا بيني وبين البامبو وبتلك الكلمات، ما الفارق؟ فأجمل الحكايات، كانت لنملة تخاطب ملك.

2

كلنا نمل يرغب في مخاطبة ملك، نملة لا تملك لسانا، وإن ملكت فلن تؤت البلاغة.

هل تعرف هذا المشهد الثابت في مطاردات الأفلام، عندما تتحطم أثناء المطاردة عربة خضار، فاكهة، حمص شام، كشك سجائر؟

يبدو الأمر مضحكا حينها، كنمل مسحوق تحت وطأة الأقدام، لا أحد يفكر أن ما دهسته الأحداث الكبرى في مطاردة البطل للمجرم، الخير للشر، كان حياة هذا الشخص بأكملها، هل تعرف هذا المشهد؟

هذا أنا، هذا نحن، النمل الذي لا تُنجيه حكايته من الدهس، الغلابة المطويين في حركة الزمن، كطي السجل للصحف.

وقفت على عتبة ثريا، لم أكن أفكر في الله ولا في تمثال البامبو، بل عاودني ألم هجرانها، وقض روحي. كنت مستعدا لطرق بابها متوسلا، لكني وجدت حمادة الأعور خلف ظهري. تبعني دون أن أشعر بخطوته الصامتة وخسته التي تكدر روحي.

قال الأعور: لقد أرسلني البامبو.

مد لي يده بنقود، قال إنها ثمن التمثال ويزيد عليه ما يكفي لمطعمي ولمشربي فلا أنشغل بسواه، ثم نظر إلى باب ثريا بطريقة دفعتني للغضب.

قال ساخرا:

"لا تقلق.. مثلها لا يروق لي"

"وما يروق لك؟"

"أشياء لو عرفت لذتها، لاعتبرت فرج ثريا لعب أطفال"

أطلق ضحكة لزجة، رجت في الخوف:

"من الأفضل لك ألا يشغلك قضيبك عن تمثال البامبو، إن أردت استعماله مجددا"

"تعلم إذن أني لا أملك وقتا للثرثرة"

"ولن تملكه، أشك أنك قادر على حل لغزه، لكن لا تقلق، سأتوسل إليه ألا يقتلك" صمت لثانية قبل أن يعقب: "سأطلبك لنفسي" ثم انفجر في الضحك، طلبت منه أن يخفض صوته كي لا تسمع ثريا.

باغتني بقوله: "بإمكاني مساعدتك".

بدا صادقا، لكن ذلك لم يمح شكي. واصل:

"إن عرفت سر طيور الفزع، ستعرف حكايته".

ثم رحل مغمغا:

"لا تنتظر مني مساعدة أخرى".

يا ليته لم يقل شيئا، فلم أكن أعلم إن كان مكرا أم مساعدة.

عدت إلى باب ثريا، طرقته، فتح لي رجل ضخم مهيب، تراجعت في ذلة، أغلقت علي باب أمي وبكيت حتى قتلني النوم.

رأيت المنام مجددا، النمر المجنح، حاملا رسائل غامضة: **"ازدر الموت وارع الحياة وأظهر حماستك للنجاة. مملكة السماء ليست لمن يخشون الموت، على من يبحث ألا يتوقف عن البحث إلى أن يجد ضالته، وعندما يجد ضالته**

سوف يضطرب، وعندما يضطرب سوف يُدهش ويسود على الكل(*)".

توسلت إليه أن يكف عن إلقاء المزيد من الأسرار، وأن ينبئني بحكاية العائلات الثلاث؟ حكاية إدريس؟ حكاية ولي الدين زوج ثريا الذي ابتلعه الجنون؟ حكاية أمي التي تمزق عقلها بين النظر إلى الأرض والتطلع إلى السماء؟ حكايتي؟ سر طيور الفزع وحكاية البامبو، فلم يلق إلي إلا طلسما إضافيا:

"ليس للإنسان حاجة لأن يترك الأرض كي يحلق في السماء، ذلك سر عظمته".

ثم رحل، لكنه لم يعبر إلى بحر، بل إلى معبد مبني على جبل عال وحصين، فلا يسقط ولا ينكشف ستره، علمت أنه بغيتي، لكن كيف الوصول.

قمت من نومي منهكا كأني كنت في خضم عركة كبيرة، وصدري مستنقع للهموم واليأس، والجوع أيضا.

عددت نقود البامبو. قلت سآكل شيئا خفيفا، كي أحفظ النقود القليلة التي أرسلها.

ما إن سلكت طريقي حتى زلزلتني رائحة طعام كثيف الدهن، فدخلت إلى المطعم، طلبت كل شيء، أكثر من حاجتي، شاعرا بالقدرة على التهام العالم، وأن التخمة وحدها قادرة على تطبيب قلبي المجروح والمنهك.

(*) إنجيل توما.

بعد عدة لقيمات من اللحم الصافي، صار العالم سعيدا، وفكرت في حيلة تنجيني من فخ تمثال البامبو، فكل ما علي أن أفعله أن أصنع تمثالا يجسد عظمته لا حكايته، سيخلط غروره عليه الأمر، بدت لي حيلة ناجحة، لكن ما أن عبرت الشبع إلى التخمة، حتى أصابني خمول شديد، وعادت الكآبة تظلل صدري، وانكشف لي عجز حيلتي.

أخذت ما تبقى معي من طعام، ثم عدت إلى الورشة بخطوات ثقيلة يأكلها اليأس، جلست ساعات طويلة، أحاول أن أصل إلى فكرة ما. لكن لا شيء، أناملي مسكونة بالعنة القاتلة.

تكرر الأمر بحذافيره، مع كل ولوج لليل في النهار، حتى نفدت المهلة، ومعها نفدت نقودي، على الطعام والشراب والمقهى، وحلة أو اثنتين أعجبتني.

طرق حمادة الأعور باب الورشة. حَمَّلتُه رسالة وضعت فيها كل أملي:

"على تمثال البامبو أن يليق بعظمته، فليمهلني شهرا إضافيا"

عاد برده:

"أسبوع فقط لا غير، لكنه يشترط ألا تخرج من ورشتك، إلا وقد أتممت تمثالك"

أضاف قبل أن يرحل بصوته اللزج كدهن:

"هذا كل ما استطعت أن أحصل لك عليه. أنت مديون لي يا صديقي"

طلبت منه أن أخرج مرة أخيرة، للتزود بما أحتاجه من طعام وشراب، اشتريت طعاما شهيا بآخر ما أملك من نقود، قلت سآكل ما يكفيني حتى لا ينفد قبل تمام المهلة.

أجهزت على نصف الطعام في اليوم الأول، بكيت، ثم ثبتت ذهني على خطة واحدة وأخيرة:

"سأدعو الله أن ينجيني، سأظل أذكره وأدعوه، حتى يرق لحالي، ويفتح لي باب رحمته"

واتتني في تلك اللحظة للمرة الأولى، فكرة المشي إليه والسعي نحوه، وظننت أن المعبد المبني على جبل عال وحصين، هو بيت الله في مكة.

ضاعف حبسي في ورشة من طابقين شهوتي تجاه المشي، فنذرت أن أفعل لو أنجاني، فصارت فكرة المشي إليه هي أملي الأخير، وسط عتمة يأسي من الطاعة والخواء الذي تخلفه الشهوة، خواء قاتل، كأن العقاب أن تحجب عن شهوة الدنيا، كما حجبت عن السماء، فلا تعرف أيهما تبغي ولا إلى أين تمضي.

ضاق فرج الدنيا، ولم أعد أتحمل بكاء الخواء، وابتعاد المحبوب، ثم فتك بي الشوق إلى اللاموصوف، ثم حل الحزن، فأضاء قلبي بالبشر، ما علامة ربي في قلبي إلا هذا الحزن، قابع في القلب منذ طفولتي، إذا رحل عني، قسا قلبي، وإذا تكالب علي أغرقني في العتمة.

كان إدريس يحتفظ في ورشته بتمر وكسرات خبز، فلما عثرت عليها تجدد الأمل، فقلت سأتقرب إلى الله بالابتعاد عن شهوة الطعام الثقيل.

ألقيت ما تبقى من طعامي خارج الورشة للقطط التي تكالبت عليه، فنفرت من تكالبها، وتذكرت حالي فأشفقت على نفسي.

ظللت أذكر الله، لكن سرعان ما استبد بي الجوع ولم تسعفني التمرات ولا كسرات الخبز، واشتقت إلى الطعام كثيف الدهن، وعندما استبد بي الظمأ ولم تكفني شربة ماء، تنسمت حلاوة العناب المثلج، وتذكرت الراحة في فراشي والنشوة في فراش ثريا. فقلت:

"يا الله يا ولي الصابرين، القانتين، الحامدين، الشاكرين.. الطريق إليك وعرة، أيرققه الحزن؟" لكن لا شيء، لقد عاد الفراغ المعتم.

استجمعت إرادتي مستعينا بما قاله شيخي النمر، فإذا كان أصلي من السماء، فلا شك لدي أن الطريق إلى جذوري السماوية ينتظرني، وإن قليل من المكابدة قد يعنيني على أن أسبر أغوار السماوات، فما هي إلا حجب، نحو مُلك حبيبي الأبدي. فواصلت الذكر.

لن تصدق ما حدث، بعد ثلاثة أيام فقط، وجدت نفسي في صحراء، رغم أني لم أغادر الورشة أبدا.

3

توغلت بعيدا جدا في الصحراء، هل ضل الفؤاد وما رأى؟ أي مسافة أقطعها الآن؟ هل هي الخطوة الفاصلة بين العقل والجنون؟ هل أتبع إلهي الحق، أم جعلت إلهي هواي؟ أكلني الجوع، فأمسكت حجرا على بطني، تمنيت لو ربطته على قلبي الذي يغريني بالعودة، لكن إلى أين، إلى جحيم البامبو؟ وقلت، لو أنجاني منها، سأربط حجرا على قلبي طيلة عمري فلا يسعني إلا الله، وعلى عقلي فلا أتفكر إلا فيه، وعلى سمعي فلا أسمع إلا صوته، وعلى بصري فلا أبصر إلا وجوده، فالله في كل مكان، والفتنة لم تهجرني بل عبرت معي إلى الصحراء، لكنني عدت فاستغفرته وواصلت المسير.

عم الليل، فاستضأت بالنجوم من ظلمة اليأس، وحط البرد، وحسبت أن كل صيحة في الهواء هي لوحش أو أفعى أو عقرب يهم بقتلي عقابا لي على ترددي في السير إلى الله.

جلست متعبا، وتصاعدت شهوتي تجاه ثريا، وقلت يا رب وفكرت في عظمته، فتنحت شهوتي، فحمدت ربي، لكنني سرعان ما أدركت أن ذلك لم يحدث إلا لأن شهوة الطعام الطيب برزت هائلة ووحشية، تلتهم ما عداها، فأخرجت ثلاث تمرات، لكنني اشتهيت خروفا كاملا، رغم أني لم آكل في حياتي خروفا كاملا، رأيت التمرة خروفا مشويا، وظننت أنها

أولى معجزاتي، فأكلت حتى قذفني الشبع في ملكوت الرضا، قلت ذلك بفضل الحمد، حتى أني رأيت ما بين النجوم أوتارا، شعرت أني قادر على لمسها وعزف مقطوعة إلهية عظيمة، ولم أعرف إن كان ذلك بداية الوصول أم الهلوسة، فأنا لا أعرف شيئا عن سبل عزف الموسيقى.

طلع النهار فأُعتم قلبي باليأس، كان الله ولا شيء معه، هو مبتغاي، لكن الآن لا شيء معي، لقد تركت كل شيء، فلماذا لا يُقبل مني؟ ولـمَ الهجر؟ أنفرت يا الله من الذنب في قلبي؟ سبحان من لا يُعجِزه شيء، كل ما أبتغيه قطرة نور، تكفي لحياتي وقتلي، كيف وإلى أين أمضي؟ المزق يشتد والروح تجف وتهلك كورقة شجر في خريف بائس، أهذا الجسد قنطرتي إليك أم حجابي عنك؟ ردائي البالي أأنا اخترته؟ أكسوت به نفسي لحما وعظما وشهوة؟ الألغاز لم تحل، والمعرفة جهل والطريق عدم والكون وهم ولا وجه إلا وجهك الكريم. تهلك النفس دون خطوة واحدة إلى الأعتاب العلية، فأي شقاء؟ وإلى متى تترك ابن لعنته لشقائه، أحي موتاك، فالأمل شح، أقم نجواك، فابنك ضئيل الهمة والإرادة، لا مكان له في الأرض، فكيف تنزع منه مكانه في السماء؟ الطريق شديدة الوعورة، فكيف أخطو إلى ما لا سبيل إلى معرفته؟

ثم قلت: سأعود إلى هلاكي.

لكني لم أجد أثر الطريق، تهت حتى فقدت القدرة على التقدم أو العودة، لم أجد إلا رجالا غلاظا فوق جمال، يمسكون بالكرابيج وفي أعينهم يتقد

الشر، فأسلمت ساقي للريح، لم يكن لي أن أسبق الجِمال، لكن هذا ما حدث دون أن يحدث، كأن الريح حملتني، فصرت أسرع من طير سليمان، فوجدت نفسي أمام كهف فاختبأت، وقرأت "فأغشيناهم فهم لا يبصرون" فما أبصروني.

اعتزلت في الكهف بضعة أيام، أشرب من الندى وقطرات المطر، وأسد جوعي بما تيسر من نبات وحشرات اصطدتها، ألذها الجراد، وفكرت فتدبرت أن الرجال الغلاظ لم يكونوا إلا شهواتي وذنوبي وقد جاءت لتطاردني.

ثم سمعت الصوت من جديد يقول: "ما خلقت خلقا أحب إلي منك ولا أكرم علي منك، بك أعطي وبك آخذ وبك أثيب وبك أعاقب"، فما عرفت من أين يأتي، من الكهف أم من رأسي أم من قرار الروح. قلت: يا ولد.. لا يعقل أن يكون هذا صوت الله. ثم قعدت على جنبي أذكره.

استعادة الصوت كانت لذتي الأثيرة في الكهف، كان مرسلا إلي، لي وحدي، أنا التافه، العاجز، كوم القمامة، البصقة، الخراء. شككت للحظات أن الصوت هو صوتي، لكنني أنكرت ذلك، دائما ما يبدو صوت المرء هو أغرب الأشياء على الأذن، ربما لأنه ليس إلا وهما.

لم أكن أعرف إن كان علي أن أبقى في الكهف أياما أخر، أم أن علي أن أواصل المسير، قلت: قد يكون هذا الكهف المظلم والضيق والنتن برائحة بولي وخرائي، روضة من رياض الله، إن أحسنت العبادة والذكر، ونشدت طهارة قلبي قبل طهارة مكاني.

لكني لم أحسن العبادة والذكر، عادت شهوتي تجاه ثريا، ببطء مخادع، قبل أن تكتسحني كرغبة وحشية.

بدأت الشهوة بفكرة مضحكة، أني ضربت الرجل الضخم الذي فتح لي الباب، ومزقته إربا، ستعاود رفضي، لكني سأغتصبها بلا رحمة، وسأقضي منها وطرا تلو وطر، سأعذبها عن كل يوم هجرتني فيه، ولرفضها الجارح لزواجي منها، ولاتهامها الغريب أني أحمل بذرة الجنون.

لكن ما أن أفرغت شهوتي، حتى بكيت، وفكرت أن لا شيء سيغسلني الآن، فكرت في التيمم بالتراب، ثم فكرت أن أدعو الله أن يسقط المطر. قلت: أأدعو الله على جنابة ذنبي؟

لكن المطر هطل بكثافة شديدة، عاريا، اغتسلت، مغمورا بالماء والبهجة، ماذا يُدعى هذا سوى الغفران؟ اعتبرت ذلك علامة إلهية، ثم راودني الصوت: يا منافق.. رأيت في ذنبك سببا للبعد، وفي تقواك سببا للقرب. كان الصوت نفسه، الذي يصدر مني وليس مني، فعدت وانكمشت من البرد، وتعلمت كيف أشعل النار.

فعبدت وجاهدت وذكرت وتذكرت وكابدت وتمسكت بالنداء كاويا لشهواتي، فشعرت بلذة تنبت، صغيرة، غضة وغامضة، أقوى من المتعة التي أشعر بها بعد مضاجعة ثريا وأكل الطعام، تلك لذائذ تأتيني من خارج روحي وينبت معها الألم، أما تلك فصافية، الروح مقرها، من داخلي تأتي، تشبهني ولا تشبهني، كالأصوات التي أسمعها، لكني سرعان ما فقدت تلك

اللذة في مضيق المكابدة والمجاهدة، فاعتلاني الغم، وعادت عبادتي محض حركات بلا معنى، وذكري بلا روح، فعدت للتفكير في ثريا، واكتسحتني الشهوة من جديد.

ثم سمعت صوت النمر هادرا ومهيبا، كما كان يجيئني في أحلامي، كان غاضبا: "أنسيت موعدنا؟" فتذكرت أن علي مواصلة المسير إلى معبد مبني على جبل عال وحصين، فلا يسقط ولا ينكشف ستره، فعدت للمشي تجاه الله.

انشقت الصحراء عن بحيرة من قار، تسبح فيها الأفاعي، فنظرت إلى السماء ثم عدت ونظرت إلى الأرض، قوضني الفزع، وظننت أني مت، وأني في الجحيم، وأنه لم يقبل مني، حاولت أن أتذكر نصف النصف الذي أعرفه من القرآن، تلوت كل ما أعرفه كأني ألفظه من صدري، مع كل آية كانت أفعى تختنق بسمها، حتى نفذ القرآن من صدري، عبرت جثث الأفاعي، لا أعرف أأفرح بنجاتي أم أندم على ما ضيعت؟

لم أكمل السير، بل الهرولة، راغبا في العودة، حتى أصابتني الشمس بالحمى وأجهز علي العطش والجوع، فوقعت مغشيا، مستسلما للموت، راجيا عفو ربي وأن يغفر لي ذنوبي بفضل حماقة السير إليه في الصحراء، وما الحماقة إلا أنفس هدايا المحب إلى حبيبه.

كان الهلاك ولا شيء معه.

لكني أفقت على عيني فتاة جميلة، شديدة البراءة والغنج في آن، يشع من عينيها النور ويلتحف جسدها بالنار، كانت تطببني وتسقيني من شراب عذب لم أذق في حياتي أحلى منه، يشبه العناب في مظهره، لكن جوهره كأنه شراب الجنة، سألتها عنه فأجابت: خمر يشفي ويرد العافية إلى جسدك.

انتفضت من مكاني كمن مسه عقرب، قلت: أسقيتني النار.

ابتسمت، فشعت الطمأنينة من ثغر كاللؤلؤ، استكنت وطلبت المزيد، فأسقتني. ثم سألتني: من أنت؟

قلت: عابر يبحث عن الله، ثم أضفت ساخرا: أتدرين أين هو؟ لقد أضناني البحث عنه. ابتسمت من جديد دون إجابة.

تعلقت بمذاق الخمر والفتاة الجميلة، لاحظت ثوبها البدوي، المتقشف والمثير، اكتشفت طابع الحسن وحواجب منحوتة، قالت: لا أعرف أين الله.. لكني أعرف أنه أنجاك.. لابد أنك شديد الإيمان لتنجو من عضات العقارب والأفاعي، قلت: لا أعلم.. ربما.. طرد الإيمان السم من جسدي، فطُرد معه، فصرت خاويا إلا من الكفر.

أخرجت الفتاة من جيبها، ثعبانا كبيرا، ومررته على جسدي، قوضني الهلع، وهو يلتف حول رقبتي، ولم يكن زحفه إلا دغدغة لطيفة، لم يكن هلعي من الثعبان، بل لاكتشاف سقوط جسدي عن جسدي، حتى صرت محض طيف.

انشق جلد الثعبان وكسا لحمه بلحمي وصار جلدي هو جلده، فصرت ثعبانا أزحف، وضعتني الفتاة في عبها ومضت، كان جسدها ناعما، وجلدي أيضا، أكاد أقسم أني شعرت بسعادتها لمروري اللطيف على جسدها، ثم سرعان ما أدركت أن الفتاة التي تحملني ليست إلا روحا وقد صارت جسدا، لم أدر كم شمسا وكم قمرا مرّوا، وأنا أرى العالم من شق صدر امرأة، فقد أحاط السكون والصمت كل شيء.

وصلنا إلى روضة خضراء واسعة، توسطها قصر عال شديد البهاء، عرفت أني دخلت أرضا عجيبة يألف فيها الإنسان الوحوش والأفاعي، رأيت أطفالا تتجاذب اللعب بالعقارب، والنساء يتدثرن بالحيات من البرد، ويمتطي الرجال الأسود بدلا من الخيل. لم أشعر بالرعب، لكن ما أذهلني هو رعب الوحوش لمرآي، ارتجفت ولم أعرف إن كنت جوعانا، أم أن رغبة افتراس كل شيء كانت رغبة أصيلة ودفينة، قرأت الفتاة كلمات لم أتبينها، فعدت إلى هيئتي آدميا.

لم أحتج إلى مرآة لأعرف أني لم أعد أنا، بل البامبو بشحمه ولحمه، وتلك حكايته، أما حكايتي فقد التحمت بها التحاما وذابت فيها ذوبانا، كجسدي وجسد ثريا في ذروة نكاحنا، وتذكرت أنه في لحظة غائمة، قد غادر الحي، وعاد ليخبرنا أنه قد عرف نداءه، كانت سوأتي عارية، ولم أشعر بالخجل.

وجدت نفسي أمام ملك، ملك حقيقي، عظيم، لكنه مهموم الخاطر،

مهموم الخاطر وامرأة كانت تشبه تمثالي، تمثال ثريا الذي لا يشبه ثريا، همت بها حبا، ولم أر في ثيابها الغريبة والجلباب الذي يجمع بين اللون الأخضر والذهبي ولا صولجانها المرصع بجواهر من صفيح إفسادا لفني.

لم يبد أنها تبادلني حبا بحب، بل مقتا بالغا، اقتربت مني بخطاها البطيئة البهلوانية كإوزة، نظرت كأنها تقبض على عيني، وشعرت بالخجل من سوأتي، كان لهيبتها جلالا رهيبا، فأمرتني أن أسوق نفسي إلى قفص مفتوح، ففعلت وأغلقته علي، ولم يكن للقفص أن يحمل جسدي دون أن أحنيه كهيئة القرود، آلمني هذا أكثر من عري سوأتي.

قالت المرأة: لست قردا.. أنت خروف، فعلمت أنها تملك أن تقرأ ما في خاطري، لكن ذلك مزقني إلى نصفين، نصف يلعنها وآخر يهيم بها غراما، بكيت بحرقة، فقد كان اللغز الوحيد الذي انكشف لي أني غير مؤهل للحقيقة ولا استقبال النور، فما أحمله بداخلي ليس إلا الظلمة والوحشة، ولن ألد سواهما.

ابتسمت الملكة، قائلة: ها قد عرفت. فانفتح القفص، انطلقت مهرولا بغضب بالغ، حاولت تحطيم كل شيء أمامي، بل افتراسه، لو انفتحت لي السماء الآن، ووصلت إلى كبد الحقيقة سأنهشها بأسناني، ثم ألفظها كي تكف الألغاز عن أن تستعصى على أمثالي.

لم تحاول الملكة إعاقتي، ولم يبد عليها الغضب، بل انتظرت حتى فرغت حمولتي من الحقد، ولم أبق شيئا في قصرها دون افتراسه، حتى الفتاة الجميلة

التي أنقذتني من الموت، ثم عدت خاويا من جديد، منهكا، ألهث، أنتظر أن تقفز الدموع من عيني، لكن لا شيء، كأن قرار روحي بئر معطلة. زحفت نحو القفص ببطء، أغلقته علي من جديد، جاء عبيد، حملوا قفصي إلى الظلمة، هناك صغت كل شيء في عبارة واحدة: لقد عرفت ندائي.

ظهرت الملكة من الظلمة، كالضوء والنار وأشعة الشمس الأولى وحياء ضوء القمر والفنار، كعواميد الإنارة، كشموع في زجاجة، لكنها أبدا لم تكن ككوكب دري، ولم يضئ نورها السماوات الأرض، لكني لم ألق بالا لذلك.

قالت بحنان مخلوط بغنج: هل أنت مستعد لاستيلاد ما في داخلك؟ أومأت برأسي غضبا ويأسا، فضاجعتني، فبلغت نشوة لن تطيب لي بعدها أنثى أبدا، ثم اختفت كلمح البصر، كدفقة ماء، كقذف اللذة، ككل سراب ظنته حقيقة، وكل فكرة بائسة امتلكت روحي واعتقدت فيها خلاصي، فصار ذلك السراب هو أنيسي وعذابي.

لم أعلم كم لبثت في قفص الظلمة، لكني أدركت حنانا لم أعهد مثله، كانت بطني تنتفخ وتنتفخ، ثم انفجرت، بألف عصفور، طيور الفزع، وحشية وهائلة وجبارة ولها رأس أفعى، وغير مرأية لسواي، لا يشبعها شيء، ولو نهشت العالم نهشا، ولا يروي عطشها دماء العالم، بها انتصرت في حرب العائلات الثلاث، استدعيتها حين احتدم الموت، ونشب أظافره في عيني، جند لم يروها. لكنها حصدت أرواحهم حصدا، كانت الطيور

شُهبًا قصيرة العمر، تومض في السماء، تقتل أعدائي لتنطفئ. وكان ذلك ندائي، لكني دفعت ثمن ذلك غاليا، لقد ماتت روحي حينها وإلى الأبد. فصرت البامبو، ملك الليل.

4

ألا ترى الكون إلا دائرة للقداسة والمساخر تتكرر بلا توقف، وبلا نهاية، تنتج الوحوش والمسوخ والملائكة، مصنع للواغش والأقطاب، سيرك للغرابة ومتحف للنور؟ تنزعون عني ربي، لتصيروا أربابا. يا مغرور، ماذا تظن نفسك، كنزا مخفيا، أردت بي أن تعرف؟ إنك تستقي عظمتك وكبرياءك من جهل أمثالي وضعفهم، لولاهم لكشف عنك الغطاء، ستنكرني عند صياح الديك ثلاثا.

أو كما تعرفون، لم يقل سعيد شيئا من هذا، لكنه صمت تماما، وقد رأيت في ذلك بلاغة كافية.

5

أفقت من رؤياي، فوجدتني بالورشة، كان صدري يلهث وجبيني متعرق وعظمي مسحوق وأعضائي مفككة، ويداي محروقتان بسياط الشمس

وملطختين بالطين، فسبحان الذي فتق من أجلي حجب السماء فولجت من ورشتي إلى صحراء من عطش، وأعادني إلى ورشتي كأن الزمان طرفة عين، وكأني لم أبرح مكاني، لأجد أمامي تمثال البامبو، بديعا في عيني، لا شيء ينقصه ليحوز الكمال.

كان التمثال شجرة جافة كئيبة ووحشية، لها رأس ثور غاضب بثلاثة قرون وذيل، جذعها من جماجم ضحاياه في حرب العائلات الثلاث، وعيناه مجوفتان غائرتان بالعدم، وأغصانه أذرع ومخالب متشابكة وملوية، لم أحصها، بعضها مرفوع إلى السماء، ينتظر شيئا لا يجيء، وبعضها يقبض في اتجاهات عشوائية على اللاشيء، بدا لي كقضبان قفص غير مرئي، ويد تمسك قضيبا منتصبا، على طرفه يقف عصفور، ليس كما تدعون مما اكتمل في أذهانكم، بل فكرتي التي لم تكتمل عنه، أعمى بلا عينين، أو أجنحة، وفي منقاره أسنان تنهش.

بدا الوجه الوحشي للثور، غريبا في كل مرة أراه، تارة يبدو مفزعا، وتارة فزعا. مرة يبدو شجاعا مهيبا أو يائسا رعديدا، شجرة لا حياة فيها ولا ثمر لها، وأحيانا كأنها تقبض على ينبوع الحياة غضا وجارفا. أما أسرارها الكاملة، فسينكشف لي بعضها لاحقا عبر ألف عين سواي، ولن أدركها كلها أبدا، ولن تدركها ألف عين سواي.

حمدت الله على نجاتي، وفرحت حقا، لكن لدقائق معدودات، عندما استعدت ما حدث، شرخت نافوخي الأسئلة، أكانت معجزة وكرامة،

أم فشلا ذريعا؟ من خاض الطريق حقا، أنا أم البامبو؟ وهل كنت أملك خيارا سوى الاستجابة لنداء الظلمة، أهو من اختار أم أنا؟ ثم كدرت تلك الفكرة صفو روحي واستقرت: كان الهدف السعي إلى الله، وجابهني بدن البامبو، ولم أنج، بل سقطت فيه وذبت، فأغلق علي الباب. كان البامبو حجابا واختبارا فشلت فيه، لكن هل كان ذلك خطأي؟

سمعت طرق باب الورشة، فارتجف بدني، كان حمادة الأعور، وقد حل موعد تسليم التمثال إلى البامبو.

غطيت تمثالي بقماش غليظ، ولما حاول حمادة الأعور أن ينزعه، قلت: من الأفضل أن تكون عين صاحبه هي أول عين تقع عليه.

ارتبك لثواني، قبل أن يدرك أن لا معنى لما قلته، لكنه استجاب تحسبا، حمله معي إلى العرش، ببطء وحذر، كنت أقود الطريق وأنهره إذا عَرَّض التمثال للخطر، وقد سرت هيبة غامضة في قامتي فانتصبت، وفي روحي فُرتق مزقها.

لكن ما أن صرنا أمام العرش، حتى اعتراني الشك فيما اقترفت يداي، ورأيت تمثال ثريا الجالس كخطأ فادح تمنيت معه لو أن الأرض انشقت وابتلعتني. كشفت الغطاء عن تمثال البامبو، وكلي معلق بتعبيرات وجهه وشفتيه، كأن كلماته التي ستخرج منها، مقصلة ستطيح برقبتي أو تنفخ في روحي السكينة.

اتسـعت عيناه في دهشة، ورقت ملامحه القاسية ولان شيطانه، فهلت على قلبي حمائم البشـرى، ثم هبط إلى التمثال، تفحصه، لمسه، تعجب قليلا من هيئة الثور، لكن سرعان ما شعرت برغبته في احتضانه، ثم تجهم وجهه، فطارت الحمائم فزعة.

سألني عن اليد التي تستمني. فقلت: "بل تلد"، سأل: وما الذي تلده؟ قلت: لا أدري، ربما طيور الفزع التي انتصرت بها في حرب العائلات الثلاث، ابتسم. ثم نظر إلى أتباعه:

"ألم أقل لكم، أنه حامل سر إدريس، ها قد عرف" ثم عاد ليسـأل: "وما ذاك الوحش الذي ينهش طرف قضيبي؟"

قلت: "عصفور، ربما كان هو طائر الفزع عينه، يشتاق إلى العودة إلى أصله الأول، وكذلك كل نفس"

"كلمات إدريس.. لقد علمك كل شيء"

لذت بالصمـت، فقال: "لقد صرت منا الآن" ثم عاد إلى عرشـه في وقار ملكـي، آمرا أتباعـه بنصب التمثال في قلب البيـاصـة. فحمدت الله على نجاتي.

قال حمادة الأعور بحسد يكاد يفتك بعينه اليسرى:

"كيـف يمكن للبامبـو، ملك الليل وفتـوة البياصة أن يكون محض

شجرة جافة وكئيبة وبلا ثمار" قلت:

"الثمرة داخلك"

"لا أرى أية ثمرة"

"ربما لست أعورا، بل أعمى" فهَمَّ بضربي.

"كفى يا أعور" ارتجت البياصة بأمر البامبو، فتركني مرغما.

أخرج الملك مكافآته، أوراق من فئة العشرة جنيهات والخمسة جنيهات، نثرها في الهواء، فانحنيت بلا تردد لالتقاطها، فرحا، ومتجاهلا تلميح الأعور أن إدريس لم يكن لينحني ولو صبننا فوقه الذهب، كنت أفكر في شيء آخر، الطعام. ولم أنس حمد الله.

قال البامبو:

"اذهب الآن واسترح، فالمهمة القادمة لا تقل خطورة"

لم أفكر في كلماته بل توجهت إلى أول مطعم وعببت الطعام عبا، أكثر من الشبع، وأبعد من التخمة، وندمت ككل مرة، فاستغفرت الله.

لكن الفتنة لم تهجرني، كانت ثريا هناك تنتظرني ببابها الموارب، غفرت لي وغفرت لها، بكيت وبكت ولم أخبرها بتهديد البامبو، صعدنا إلى حيث تحوم فراشات الضوء، ونذوق الرفعة والخواء، والنور والظلمة والبهجة والندم والفردوس الأعلى وقاع الجحيم.

لا عليك، فلتصف ما تشاء بما تشاء، لو أن هناك فائدة لأن تحكي حدثا لم يحدث، فهي أن تصفه بما كان وما لم يكن.

ملك السمـان

1

كان جسدها يضوي، وكنت قمرا يتشرب الضوء، لففت ساقي حول وسطها، وانتصب ظهرها وأحاطا بي ذراعاها كالماء حول الجنين في ظلمته الأولى، وصارت حلمتها في فمي، ثدي العطاء بلا انتظار لأخذ.

أما الشفتان فظلتا أحجية، إذا ما تحركتا لتتحدث، ظننت أن ما ينطلق منهما نداء للفناء في حضرتهما لا كلمات، فاشتهيهما أكثر. وإذا صمتت، أولجت لساني، ولعقت الحجب، لتنكشف الأسرار، فلا تُبق شيئا، ولا تقذف لغزا جديدا، ألهذا لا أشبع أبدا من التقبيل، ولو صار قمري من التعب محاقا أو عاد كالعرجون القديم؟

إلا سرا واحدا، أباحت لي بنظرة منه، ثم أغلقته علي، حكاية زوجها ولي الدين، أبت أن ترويها، قالت إنها حكاية متوحشة، قطعت سبعا من رؤوس عشاقها وقذفت بهم إلى الجنون ما أن روتها لهم.

قلت ضاحكا: ألم تري في عيني بذرة الجنون، فما الضرر؟

لكنها لم تضحك، بل أصرت على الرفض.

أما أنا فكنت أضعف من احتمال سري، وكنت أعرف بالسليقة أن إفشاء السر مدعاة لحجب أكبر عن ملك الله، رويت لها ما حدث منذ خروجي من عندها. رحلة الصحراء وحلم النمر المجنح، وتمثالها العجيب الذي فتن البامبو، والتمثال الذي وجدته ما أن عدت إلى الورشة، منتصبا أمامي في بهاء.

ثريا بسملت وحوقلت وانتصب الرعب في عينيها، ثم قالت: لن يأخذك مني أي شيء، ولا الجنون. ثم بكت.

كانت دموعها تفشي سرا أكبر: لقد وقعت في غرامي. غرامي أنا، هزيل الجسد، ضعيف الهمة، فقير الروح، بسيط العقل. غمرتني السعادة، ونسيت ما كان من ذنبي، ما بين السماء والأرض مُزقت مزقا، لكن شتاتي مجموع هنا، بين ذراعيها.

لم أعرض الزواج مجددا، لن أكدر صفو لحظة كتلك.

تنبهت أني نسيت في خضم اللذة، أن أعرف حكايتها، لمحت ثريا من

طـرف خفي، أن ذلـك يعني حبا أقـل، قائلة بعتاب: لأنـك لا تراني إلا جسـدا، ولا أرى فيك جسـدا، لقد وقع في غرامي من هم أكثر قوة منك وفحولة.

كان ذلك جارحا حتى لو لم تقله بتلك الحدة، لكنها كانت على حق، على بابها طفلا ومراهقا رأيت عشاقا يعبرون، ميزهم جميعا الجسد الضخم والفحولة البادية.

طلبت أن تروي حكايتها، فقالت: لا أملك حكاية واحدة، بل ثلاث وأربع وألف، أمرتني ضاحكة: قم فتزين.

حممتني بالمسك والصابون، وأهالت علي العطر، قصت مني الزوائد، وقيفت شعر رأسي، أخرجت لي ملبسا أنيقا من ملابس زوجها ولي الدين، أعادت تهيئته على مقاسي عند خياط.

تركتني لتتحمم، فخرجت كأنها عروس بكر، أثارني هذا، وددت لو لعقت قطرات الماء الساقطة من سحب شعرها المبتل، لكنها زجرتني بلطف، ولما وقفت أمام المرآة لتضع الكحل في عينيها تمنيت لو كنت مكانه، لكن أليس هذا ما تفعله يا جاحد القلب؟

لم أرها من قبل في فستان كهذا، قصير إلى ما فوق الركبة، مكشوف الصدر. فهي لا تخرج إلى الحي إلا في عباءات صارمة وفضفاضة، سوداء كأنها في ميتم دائم، وحجاب لا يكشف ولو خصلة واحدة من شعرها

الجميل، كان ذلك مسار تندر في الحي، لتناقض سيرتها مع صرامة زيها ومشيتها.

جعلتها المساحيق الموضوعة بلمسات دقيقة أكثر فتنة، صففت شعرها كأننا سنذهب إلى حفل.

سألتها: "إلى أين؟"

"ألا ترغب في أن تعرف حكايتي؟ سنذهب إليها، وعلينا أن نكون في أبهى صورة"

كانت المرة الأولى التي نعتزم فيها شيئا كالخروج سويا من المنزل، ونخترق عهد التواطؤ الذي أقمناه مع أهل الحي، كنت خائفا، لكن عينيها الواثقتين، أمداني بالشجاعة اللازمة.

ما أن عبرنا إلى الشارع، حتى أدركت أن تلك الفتنة التي تخطو بجواري، كانت تشق الحجر وينشرخ لها زجاج النوافذ، تلتوي لها عيون الرجال والنساء ورقابهم فرحا وحسدا، وتطل الكراهية والمحبة والدهشة من كل شق.

لم تلق بالا لكل هذا، كانت كأنها تسير للمرة الأولى في الشارع، بخطوات تخلت عن الصرامة، لتصير شيئا جامحا، لينا، يأخذ الألباب، تكاد لا تلمس الأرض، تكاد تنغرس فيها، تكاد تنبت منها، كانت سماء لا تمنع درها، تبسط النعمة بكل لفتة، وتحيل إسفلت الأرض القاحل إلى خضرة، وتلبس الوجوه البائسة كحطب جاف، نضرة بعد شحوب.

كنت مخطئا بشأن تمثالها الأول، سأصنع واحدا يشبهها حقا، أنثى لها بهجة الفصول الأربعة، كأنها عجين لكل النساء.

أنا التي خبرتها بين أحضاني، وعرفت أسرارها المخفية، ورأيت ألف مرة ما تحت الفستان، وما بين الجبلين، وتسلقت تل الظهر، وهضبة الصدر، وصعدت العنق وولجت الشق، كنت مأخوذا تماما، كأني لم أرها من قبل، كأن الانكشاف الكامل لم يكن إلا عماء كاملا، أهذا تكون الأسرار محجوبة؟ أهذا ما يجعل السر سرا؟ وبلاغتك بلاغة؟

2

عندما أدركت أنها ستخرق حرمة العهد، وستلج البياصة، رفضت المضي قدما، فلا قبل لي بحمايتها من البامبو، ستلتهمها عصبته في جوف الليل. عرى ذلك ضعف جسدي وجبن روحي، وأفسد علي كل سراب.

قالت:

"لا تخف"

"لست خائفا، لكن المكان شديد الخطورة عليك"

"ألم تصبح من عصبة البامبو؟"

"سقط العهد عني لا عنك"

"العهد للفقراء يا سعيد.. أما أنا فشديدة الثراء"

قلت ساخرا: "فلنعد إلى ضيعتك إذن؟"

قالت بتحد: "أنت فيها فعلا"

تقدمت وحدها غير مكترثة بتهديدي بالعودة، فقلت:

"على الأقل دعيني أريك طريقا لا يحرسه البامبو"

"أعرف البياصة، كما أعرف كفي"

تقدمت بثقة، كأنها ولدت هنا. وكانت رقبتي تتلوى مع عيني تحسبا لظهور أتباع البامبو، لم يحمل صوت أم كلثوم الأنس تلك المرة، بل الوعيد والرعب.

قالت ثريا: "لم تأكل السمان المشوي من قبل، انس الخوف ودعنا نقضي سهرة لطيفة"

كانت ليلة ملك السمان، خرقت أنفي رائحة الشواء الشهية، تلك أمنية قديمة، لم أملك ثمنها أبدا، أفضل رائحة طعام عرفتها، لكن سهرة عنده لا تتوفر إلا للأثرياء، ذلك سيكلف ثريا مبلغا طائلا.

انشقت الأرض عن أتباع البامبو، تحلقوا حولنا كذئاب، بأعين تلمع في الظلمة، وعرفت على رأسهم حمادة الأعور، لأن عينا واحدة كانت تلمع بضوء شاحب وخسيس.

قال حمادة:

"لم يُسمح لك بأن تأتي بشخص آخر إلى البياصة"

"سنخرج حالا"

"ليس بتلك السهولة"

كنت خائفا، لكن ثريا قالت بثبات:

"ألا تعرف من أنا؟"

أجاب الأعور: "عاهرة الحي"

صعد الغضب إلى نافوخي ملهما إياي شجاعة زائفة فسبته.

قال: "لا تغضب.. ليست عاهرة الحي، بل عاهرتك أنت، وسنتقاسمها أمام عينك، وبعد أن نفرغ منها، سأحظى بمؤخرتك أمامها، ستكون ليلة سعيدة للجميع"

قالت له ثريا بشفقة أدهشتني:

"ما الذي فعلوه بك، أنت الذي أدركت السر وعرفت كل شيء، أنزعوا ذاكرتك مع عينك؟"

تجاهل حمادة الأعور ما قالته بضحكة عصبية، ثم سألها بجدية:

"كيف تفضلين الأمر، واحد في كل مرة، أم جميعنا في آن؟ ستجدين

هنا ما يعوضك عن هزال الأجرب الذي تعيشين معه"

"ألا يخشون أن يبتلعهم ما لا قرار له؟"

استفزهم ذلك، فاقتربوا أكثر، ببطء يوحي أن انقضاضهم سيكون مهيبا، تراجعت خطوة ممسكا بيد ثريا، قبضت على يدي لتطمأنني، كانوا دائرة حولنا، لكن لما صاروا على بعد خطوة واحدة، انقلب الشر في أعينهم إلى فزع بالغ، ثم لاذوا بالفرار.

سألت ثريا مندهشا: "ما الذي حدث؟"

قالت بهدوء:

"لا أحب أن أتأخر على العشاء"

مضينا نحو ملك السمان، أي جنون، في الطريق تعثرت في شيء، أمسكته كان ثمرة غريبة، لها شكل حرف النون، كانت مضيئة.

أشرت إلى تمثال البامبو المنتصب في قلب البياصة بفخر، لم تصدق ثريا حكايتي عن صناعته عبر رحلة فاشلة إلى النور.

3

عندما تطغى رائحة الشواء، وتزول رائحة الفقر، ويختفي الحصى لتبدأ الخضرة، تعرف أنك صرت في أرض مطعم ملك السمان، المحاط بحديقة

من زهور بديعة، وأشجار، كحاجز غير مرئي، ليتوهموا أن الفقر لا يبعد مرمى قدم.

لم أصل أبدا أبعد من القشرة الخارجية لتلك الخضرة، فنحن لم نر تلك المساحة إلا كفردوس خطر، نحرمها على أنفسنا في الصباح، كما حرمها علينا الليل، حتى عندما تكون مجرد أرض فارغة إلا من قاذورات السهرة السابقة، تصبح مغنما للكلاب ورجال البامبو.

سهرة لفقير في مطعم ملك السمان، قد تكلفه عمره، لأنه لن يتحصل على ثمنها إلا بما يجنيه عبر عمره كله.

كنا نتعجب ما الذي يكلفهم ثروة حقا؟ هل هناك شيء أبعد من لذة السمان الشهي والخمر الفاخرة ينفق الأثرياء من أجله كل هذا المال ويجعل الوصول إلى المطعم مغامرة محفوفة بالحجب والمخاطر والحراس؟

سمعنا بعض الأقاويل عن طقوس غريبة تُمارَس، تعيد إلى الكهول شبابهم، وتمنح النساء فتنة دائمة، عن صفقات مع الشيطان، وإلا كيف يصبح الأثرياء أثرياء؟ هل يجعلهم السمان أكثر فحولة؟ هل ملوا الشهوات كلها، فاستنجدوا بالسمان ليجدد وهجها؟ رأيت في كل التفسيرات جنونا وشططا، ما يجعل الأمر مكلفا، هو إبعادنا فقط، كي لا يرون النمل.

كان المطعم على عكس تصوراتي، شديد التقشف، طاولاته عادية، مقاعدها فارغة، ومحجوزة في انتظار ضيوفها، لم يحضر بعد سوى ضيفين،

رجل بالغ الأناقة، وامرأة شديدة الجمال، تأففوا من قدومنا، رغم أننا كنا في قمة تأنقنا.

بين الطاولات الفارغة، يجوس بكسل جرسونات يرتدون أزياء الخدم في الأفلام القديمة، صوت أم كلثوم ينبعث كالخدر من كل مكان.

باغتتني تماثيل إدريس الموزعة على المكان كرؤوس مثلث، واحد لملاك، وآخر لحارس، وثالث لامرأة جميلة تنسج خارطة مسطحة للأرض، رأيته يصنعها، ولم أعرف مشتريها.

مر نادل نوبي عجوز على طاولتنا، داعبته ثريا بقولها:

"ما أخبار الإيراد يا صلاح؟"

قال متوسلا:

"لا تقطعي عيشي يا ست.. سأحضر لكِ كل ما تشتهين، لكنك تعرفين الاتفاق"

"لا تقلق يا جبان، سأترك ملكي قبل أن تدق ساعة منتصف الليل، لكن أرسل لي حذائي لأني سأنساه"

أطلقت ضحكة مجلجلة، أثارت تأفف الرجل الأنيق والمرأة الجميلة، سألتها عن الاتفاق، فأجابت:

"إرثي.. آكل وأشرب ما يطيب لي دون أن أدفع مليما"

عاد النادل بزجاجة نبيذ، توافد السادة ونسائهن واحدا تلو آخر. شربت ثريا بنهم، وفعلتُ مثلها.

كانت النساء جميلات، جميلات جدا، حد أنهن يجعلن من بلاغتك في وصف ثريا، أكذوبة كبرى، وحدي شعرت بالضآلة، أما ثريا التي انكشف لي رخص فستانها ومساحيقها وترهل جسدها، فلم تهتز.

داريت ضآلتي في الخمر، كان نبيذا حلوا، كالذي سقته لي الفتاة في رؤيا البامبو.

صرخت ثريا على النادل العجوز:

"لا حاجة لي بألعاب الأطفال تلك، أريد صندوق اللذات"

قال العجوز:

"المرة الأخيرة التي أثقلتِ فيها في الشراب، أثرتِ فضيحة، هذا سيغضب الملك"

"أي ملك هذا الذي يختبئ خلف عتبة عالية، لو لم تأت بها طلبت، سأشويك مكان سمانك"

ذهب الرجل إلى العتبة العالية، رأيت رأس ملك السمان يطل، خائفا من كل شيء كعهده، له بيت بجوار السوق من طابقين، ولا يغادر البياصة، رغم أن أمواله كما نسمع قد تبني له سلمًا إلى السماء، لكنه لا يصعد أبدا.

السمرة، كان عاملا في مطعم الملك الأصلي إلياس السوري، ابن عائلة اشتهرت بالبلطجة، عمل أغلبها في المطعم رغما عن صاحبه، استطاع السمرة شراء المطعم بثمن بخس عندما اضطر إلياس للرحيل.

غرابة المطعم عن روح السوق، جعلت من السمرة ملكا معزولا ومحاصرا، لا يخالط أو يجالس أحدا، يقضي أغلب وقته خلف العتبة العالية التي لا ترحب بالغرباء، ولم يكتف بحماية البامبو، بل زوّج ابنه لابنة رجل قوي من رجال الداخلية، فضلا عن صلاته بزبائن مطعمه الأقوياء.

عاد النادل العجوز وهو يحمل صندوق اللذات، تخيرت ثريا زجاجة خمر لم أتبين نوعها، وخلطتها بحبوب ومسحوق أبيض في الصندوق.

قالت: "ستكون ليلة بديعة"

تناوبنا على الزجاجة، دون كؤوس، مضيفا إلى لائحة ذنوبي شيئا بديعا كالخمر، كانت لها رائحة نفاذة كالبول، وطعمها قويا وشديد المرارة، نفرت من رشفتي الأولى، وخجلت من إخبار ثريا برغبتي في التوقف، لكن مع توالي الرشفات، أدركت شيئا قاهرا في الخمر، فما أن تتسلل إلى الرأس حتى تهاجم مناطق الألم، وتكيها كيًا، لتدفعها إلى النسيان، لذة قصيرة المدى، ما أن تفيق حتى يطاردك ألمك وذكرياتك المقبِضة كطوفان كاسح، لكن تلك اللذة القصيرة ستحثني على تكرارها.

ميزت بين أحد الضيوف وزيرا ونجمة سينمائية، عندما أتى السمان،

كان شهيا بحق، لم أذق مثله في حياتي، أشهى من أي طعام، أفضل من أي تخيل، لابد أن الملك الخائف خلف عتبة عالية ومسدس محشو، يحمي سر خلطته.

عندما انتهيت لم أكن متخما، كما تعودت، رغم أن ما طلبته ثريا كان يعبر بنا حد الشبع.

أدارت الخمر رأسي ورأس ثريا، طلبت مني أن أنظر إلى السماء فرأيت النجوم تتخذ هيئة أسد، يضرب بذيله السماء، فتنطلق ظباء جميلة ملونة، قالت: اقطف لي واحدة. ففعلت.

كنت غرًا، وظننت مثلك أنها ألاعيب الخمر، لكنها لم تكن كذلك، هذا الطعام يطلق النور، ولا يطفئ الروح، بل يوقظها من سبات عميق.

لم يكن الضيوف على الطاولات الأخرى في حال أقل غرابة، كانوا يطاردون أشباحهم، بعضهم اصطاد نجوما مثلنا.

سألت ثريا: "ألهذا ينفقون ثروة طائلة؟"

"لم تخدش سوى القشرة"

قامت ثريا لترقص على موسيقى "الحب كله" لأم كلثوم، ثم صعدت فوق الطاولات، فأثارت الحماسة بين الضيوف، شاركتها الرقص بتهتك بالغ، وتوقف الضيوف عن تأففهم بعد أن صرنا مسليين، وشاركونا الرقص.

كان لرقصي المتهتك أثرا عظيما في نفسي، كأني كنت ألقي عنها أثقالًا، فشعرت بحرية بالغة ومرح هائل، ورأيت وجه أم كلثوم في السماء، تشكله النجوم، وكانت تبتسم، سعيدة مثلي.

أحد الحاضرين أمسك ثدي ثريا، شعرتُ بالغيظ فلكمته وطرحته أرضا رغم ضعفي، قفزت فوقه وكلت له اللكمات، توقفت موسيقى الأنس واسودت الوجوه، سرى التوتر وتبددت صورة أم كلثوم من السماء.

انشق العدم عن بلطجية البامبو، طردونا من المطعم، ودفعونا بعنف كأنهم يسوقوننا إلى حتفنا، لولا أن ظهر ملك السمان نفسه، قصيرا بقدم تعرج، شعر أشيب، وحواجب ثقيلة وعينين ضيقتين، وأسنان أكلها سوس الزمن، أمرهم بإطلاق سراحنا، اقترب من ثريا، قال بصوت يفتعل الحسم:

"لن أحميك مجددا يا ثريا، لا أريد أن أراكِ في البياصة مرة أخرى"

"لن يحدث حتى تسدد دينك"

"لا ديون يا ثريا.. بل هي الشفقة والمحبة القديمة"

بصقت ثريا على الأرض.

قال:

"ستدفعين ثمن ذلك، لقد نفد صبري" ثم استدار عائدا إلى مطعمه.

كانت مخمورة وغاضبة. ولم يكن بها طاقة لتهدئة روعي، فحاولت

أنا. لكنها ما لبثت تكرر بهوس بالغ: سأستعيد ملكي يا سعيد؟ وأنت من ستأتي لي برأس الكلب: ملك السمان.

قلت مشفقا: لن أسمح لشيء أن يأخذك مني.. ولا الجنون.

صفعتني على وجهي، فتلقيت الضربة هادئا، ثم ارتمت في حضني وبكت.

سألتها ضاحكا: كيف لم تصدقي حكايتي عن ولوج الصحراء من الورشة والعودة بتمثال وتؤمنين بأنك تملكين البياصة؟

4

لم أعد أميز بين الليل والنهار، اختلطا، فصرنا نصحو مع دبيب اللذة، ونغفو حين نمتص سويا آخر قطرة منها، حتى أفقت ذات ليلة على صوت حركة في الغرفة.

رأيت الرجل الضخم الذي كاد أن يلتهمني على بابها، يجوس في الغرفة دون أن يكترث لوجودي، كدت أن أصرخ، فأشار لي بالصمت، كي لا أزعج ثريا.

اقترب منها وقبل جبينها ثم غطاها كي لا تصاب بالبرد، حدقت فيه مندهشا. أخبرني أنه ولي الدين، زوجها الذي غادر منذ سنوات بعيدة إلى بلاد بعيدة.

اقترب مني هامسا في أذني:

"تظن أنك بلغت معها ذروة الحب، لكنك لم تخدش سوى القشرة، أعذر من يشتهي ثريا، يعبون لذتهم وينسون أن يمنحوها لذتها، فجسدها لا يوحي إلا بالعطاء لا الأخذ. ثم همس في أذني بكلمات عن ألاعيب عجيبة وخطرة، ناصحا إياي أن أمارسها مع ثريا"

صمت خجلا من أن يدور حوار كهذا بيني وبين زوجها، ابتسم وأعطاني ثمرة لها هيئة حرف النون، قال إنها تعظم فحولتي وتذكرني أن أعطي كما آخذ، وتقلل من ذنب اللذة، آمرا إياي بعينين رهيبتين أن آكلها، ففعلت.

القضمة الأولى، كانت شديدة المرارة، لكني جبنت عن رد الثمرة، فأخذت قضمة أخرى، أقل مرارة. ما أن انتهيت حتى امتلأ حلقي بحلاوة لم أعهد مثلها.

تبدلت هيئته، فصار يشبه رسولي، نمرًا مجنحًا، قال:

"دع النوم، واحذر العدو ولا تتوقف عن الخلق، بالذنب تدركه، وبالطاعة تدركه، فأي وعاء امتلأ، ففيه خواؤك، فأَدرِكْ الخاوي تمتلئ"

عبر حائط الغرفة واختفى، مخلفا وراءه أصوات جلبة رهيبة من الخطى كمارشات عسكرية، انقلبت من فراشي، ولم أدر إن كنت قد طفوت من بحيرة النوم، أم لازلت أصارع غرقي.

سمعت أهل الزقاق يصعدون درجات السلم في غضب، توحدهم فكرة

قاتلة، أفاقت ثريا على صوت الجلبة، ذهبت إلى الباب، سمعت صوت حمادة الأعور الهامس اللزج، يجيشهم ضدي، ويتهمهم بالدياثة لأنهم صمتوا على علاقتي مع ثريا.

ارتجفت من الخوف، أما ثريا فظلت ثابتة، كأن لا ريح قادرة على اقتلاعها، ميزت من وراء غبش زجاج الباب، ظلال سيوف وأسلحة بيضاء، تسللت رائحة الغضب كوحش نتن لن يطفئ شرهه إلا الهلاك، لم يكن عددهم كبير، لكن كان كافيا لتمزيقنا إربًا، وما عطلهم إلا أنهم لم يتخذوا قرارهم النهائي بعد حول طريقة محونا.

أغلقت ثريا قفل الباب، وطلبت مني مساعدتها في نقل أشياء ثقيلة خلفه، كانت فكرتها على بؤسها هي أملي الأخير، طرقوا الباب بعنف، كيوم الوعيد.

أجرت مكالمة تليفونية لمأمور قسم العطارين، نقلت له ما يحدث بشئ ما بين الهدوء والهشاشة والاستنجاد، لكن المكالمة انتهت بدلال وغنج ووعد لم أتبينه، نهرتني بنظرة استنكار عندما اكتسى وجهي بالغيرة.

قلت في نفسي: يا الله نجني، ولا أعود لمثلها أبدا. أنكرتُ ثريا ثلاثًا، بنذالة، أضفتها إلى لائحة ذنوبي وندمي، حاولت أن أقرأ القرآن ولم أبال أني على جنابة، فلم أتذكر حرفا، فقد طُرِد ما أحفظه من القرآن عندما احتميت به من سم الأفاعي، عاهدت الله أن أستعيد ما نسيته من نصف

النصف، وأزيد عليه القرآن كاملا، إذا نجاني، وكان في ذلك نذالة أخرى، فلن أوف عهدي أبدا.

تحطم الباب تحت وقع ضربات الغاضبين، كانوا تسعة دون كلبهم حمادة الأعور الذي فرّ، مدججين بالأسلحة وأرواح من الإسمنت، حطموا الأثاث، ظلت ثريا هادئة تنظر إليهم بثبات أذهلني، لم ترمش بعين، ولم تتأثر عندما وصموها بالزانية، ولا عندما ربطوا نجاسة الزقاق بها، ولم ينسوا نصيبي.

لم تقل سوى جملة واحدة ببطء وثقة: "لقد اقتحمتم منزلي"

هل يعلم البامبو بتورط حمادة في الأمر؟ ألست تحت حمايته؟ أم أنها الغيرة قد أعمت عين الأعور اليسرى.

أربكهم ثباتها، فوجهوا حديثهم لي، ليذكروها باحتقارها كأنثى أولًا، قبل أن تكون زانية.

قال كبيرهم: لولا أمك الطيبة لمزقناك إربًا. أضاف أحدهم: المجنونة.

وقال آخر: نجاسة الأب نفسها، على الأقل حمل والدك أشياءه ورحل.

قال ثالث مرتبكا بعض الشيء: لكن والده دهسه قطار.

تنوعت الأحكام بأن أغادر الحي مع ثريا، وما بين أن تغادر ثريا وحدها، اقترح أحدهم في ذروة الحماسة تطبيق حد الرجم.

الأصوات الغضبى والمحملة بالرائحة الزنخة للحماسة انقطعت بغتة عندما دخل البامبو وعصبته، ولم يكن حمادة الأعور معه، كيف علم بما حدث؟

تجرأ أحدهم وتحدث بصوت مرتعش ومنافق: يرضيك أن نكون معرصين يا سيد الحي؟ قال البامبو: منذ متى لم تكونوا كذلك؟ فأكلت الطير ألسنتهم، وحل الصمت كأنه الدهر وتنهدتُ بزفير الراحة، وحمدتُ الله.

قال واحد منهم بلسان ثقيل: لكنهم يزنون؟ أمسكه البامبو من رقبته. قال: أرأيت القضيب في الفرج؟ بهت الرجل، أعاد سؤاله ثانية. قال: لا. تركه البامبو. ثم قال: إذن سأطبق عليكم حد قذف المحصنات، ثمانين جلدة من الله، أزيد عليهم عشرين من عبده الفقير.

صرخوا توسلًا للرحمة، وعصبة البامبو تقودهم إلى الخارج لتلقي العقاب.

قال البامبو لثريا: "المأمور يُقرئك السلام"

طلب شايا، قامت لإعداده على مضض، لم يشفع تدخله لتخفي ازدرائها لرسول صديقها وحارس عدوها.

سألني البامبو:

"هل تحبها؟"

"لا أعرف"

ضحك: "بل تعشقها عشقا، أعرف ذلك، فأنا مثلك مبتلى"

لذت بالصمت، فأردف:

"قد أفعل أي شئ من أجل مَن أُحب، لكنك ضعيف"

جاء الشاي، وحط صمت ثقيل الوطأة، لما انتهى من الشاي، طلب أن أرافقه لأنفذ حد القذف بنفسي، تملصت بلطف، فلم أود أن يُجلد أحد. تركني قائلا، إنه تأثر بقدرتي على العفو، سيكتفي بجلدهم عشرين جلدة.

لم أنم، السياط التي مزقت ظهور الزبانية أسفل نافذتي، مزقتني معها، وشعرت مع كل آهة بالكراهية لكل شئ، لهم وللبامبو ولثريا ولنفسي.

اغتسلت وصليت ركعتين، بكيت بمرارة دون أن أعرف لم؟ لذنبي، أم لجبني، أم لعذاب جيراني، أم فرحا بنجاتي.

في الصباح، جلست على المقهى الفقير، جاءتني الشيشة دون طلب، والعناب دون إشارة، تسابق الجميع لإرضائي، ورأيت أن ذلك حسن.

أي شيء أكبر من الفن؟ خوف الناس، فهو لا يأفل، بل سرمدي كألف ألف نهار وليل.

5

كان تمثال البامبو منتصبا في قلب البياصة، عاليا، يزدري العالم ويزدريه العالم. والليل أطبق على كل شئ، كأنه لن يغادر مجددا. في الليل يسهل الهيام بالله والشياطين. فكرت في عبارة ولي الدين السهلة والعصية "بالطاعة تدركه، وبالذنب تدركه".

تأملت جمال رأس الثور الغاضبة، فخورا بما صنعت يداي، واشتهت أناملي الخلق مجددا، لكن دون همة أو قدرة، لم يؤرقني فناء نفسي إلى هذا الحد؟

رأيت غرابًا يرقص فوق أحد أغصان التمثال المتشابكة، بدا لي سكرانا ومبتهجا، مكورا جناحه كقبضة في وجه الرياح(*).

أحب الغربان، ولا أراها كنذير شؤم، صغيرا، قرأت لي غجرية أوراق الكوتشينة، قالت: إن حياتي هي علامة نحس ممتدة، ووجدت ثلاث شعيرات بيضاء في رأسي، تؤكد نحسي.

لم أعتد بما قالته، لكن لازالت ضحكات رفاقي في اللعب تثير فيّ شيئا بين الغضب والحزن، لم تثر فيهم مأساتي إلا فرحا عبيطا بالنجاة، كأن حياة المساكين من أمثالنا، حاملي العلامات المهددة بالخراب إلى الأبد،

(*) غراب سيلفيا بلاث.

ليست إلا محض عبرة، نادرة مسلية في كتاب الحمقى.

طار الغراب، ولم يلكم سوى نفسه، سمعت صوت اللذة الخرافي آتيا من أحد الأكشاك الصفيح، عاشقان يتأوهان بقوة، كأنهما قبضا على سر العالم، ولن يفلتاه أبدا. رج تدافع التأوهات جسدي فانتشيت. لكن سرعان ما تبدل الصوت إلى صرخة روح تقاوم الموت، يد تطبق على عنق بقسوة، وتمص منها اللذة والحياة، تجمدت مكاني، انفتح باب الكشك، فاختبأت خلف تمثال البامبو.

رأيت حمادة الأعور بمؤخرة عارية، بنطلونه يصل إلى ركبته، يلهث متعرقا، دارى سوأته مرتبكا، تلفت حوله في ندم. أنا أعرف الندم وأميز رائحته العكرة التي تكدر صفو كل خير وشر. عاد إلى الداخل، ثم جر جثة، سرعان ما تبينت أنها ليست لآدمي بل لتمثال ثريا.

بعصبية، حاول إعادته إلى عرش البامبو كأن شيئا لم يحدث، قبل أن يتجمد مكانه لثواني، من مخبأي ميزت تسلل ضوء الحياة الخافت من التمثال، لم أتبينه أبدا إلا عبر موته. جر الأعور جريمته بعيدا عن العرش، وابتلعته الظلمة.

خرجت من مخبأي متلمسا الهروب. أطبقت ذراع قوية على عنقي من الخلف، ولمع نصل سكين فوق نحري، لم يكن إلا حمادة الأعور.

"ماذا رأيت؟"

"لم أر شيئا"

"كاذب"

"لا أكن لك أي ضغينة يا أعور"

"أي لذة وجدتها في تماثيلك. بعد موتك، سأضاجع ثريا، ثم أمزقها إربا، كرامة لك"

توسلت، لكن بدا أن لا شئ سيردعه، أغمضت عيني، واستسلمت لموت العالم، لعل في الموت إجابة لكل الأسئلة، ولم أذكر الله، كيف أذكر من يتخلل مسلك الروح مني حتى وأنا في قبضة الشياطين والموت.

لكن المعجزة حدثت، سمعت صوت خوار مرعب، مجلجل، أفلت الأعور ذراعه عن عنقي وسقطت سكينه، فتحت عيني، واستدرت، فرأيت تمثال البامبو يقبض على عنقه ويعصر جسده بأياديه وأغصانه المتشابكة، ومن قضيبيه تنطلق طيور الفزع لتحيل البياصة إلى جحيم من شهب تضئ فتنطفئ، في لمح البصر.

التقط الثور سكين الأعور، ثم نحره، كانت عينه اليسرى تنظر لي في فزع، قبل أن تنطفئ، لتنبت عينه اليمنى بضوء شجاع، عفي، مطمئن، ثم سقطت جثته بجوار تمثال ثريا. تجمدت مكاني، ثم أطبق صمت رهيب على كل شئ، اختفت الطيور، وعاد تمثال البامبو لسكونه الأصيل كجثة هامدة.

أكان ما رأيته حقيقيًا؟ انتبهت للسكين في يدي، رائحة الدماء تلطخ وجهي، جسدي، ملابسي، تشير إلي كقاتل. نظرت إلى تمثال البامبو، واصل نسج براءته بادعاء الموت، وتركني وحدي محاطًا بأبهة الجريمة، أي وهم عشت فيه!

لم أقتل أحدا. هل فعلت؟

نبشت الأرض بيدي كالمجنون، لألقمها جثة الأعور، رأيت الغراب يضحك.

مر شيخي النمر. كان حزينا. فقلت: لم أفعل شيئا.

سألني: لماذا يحيط الماء بالأرض؟ لم أجبه غضبا من الألغاز، كل الألغاز. ظل يكرر سؤاله، كأنه لن يكف أبدا. فأجبت بعصبية: لأنها لن تتحمل النار. فابتسم.

جثوت خائر القوى بجوار جريمتي.

قال الشيخ: لا شئ يموت، لكن كل ما هو مركب ينقسم، وهذا الانقسام ليس موتا، كيف يمكن أن توجد في ملكوت الله أشياء ميتة.

قلت: لستُ بقاتل.

قال: بل كُتبت قاتلا قبل مولدك، لكن مَن لديه العقل يمكنه أن يتجنب العيب.(*)

(*) متون هرمس.

سببته، فلم يغضب. فسألته: ما مراد الحق مني؟

قال: ما أنت عليه.

قلت: للقاتل توبة؟ ولم أسأله سؤالي الحقيقي: أيغفر الله لقاتل أمه؟

أجاب: لقد ذقت حلاوته.. ولن تسلاه أبدا، فلتسأله الرحمة.

ارتج جسدي باليأس. فقال: لا شيء يمنعك أن تفترض نفسك خالدا وعالما بكل شيء، ارتفع فوق كل ارتفاع، اهبط إلى تحت كل عمق.

اختفى شيخي، وجدت البامبو أمامي، بعينين يحملان حكما لا يقبل الاستئناف، ارتمى على تمثال ثريا، بكى بحرقة قائلا:

"إلى متى يا حبيبة العمر، تراوغيني بالحياة والموت؟"

كنت أرتجف من الخوف، أنظر إلى البامبو وتمثاله ويدي التي تقطر الدم، في حيرة، ولا أفهم شيئا.

ركل البامبو جثة حمادة الأعور. ثم قال:

"كذبت نفسي كثيرا بشأن خيانته لي، منذ فقد عينه اليمنى، وهو يرغب في كل ما أملك، وكنت أعرف شهوته تجاه حبيبتي"

"لقد ساعدني من قبل، ودلني على قصة طيور الفزع"

"لا وجود لطيور الفزع، لم يكن الأعور يهديك إلا لتضل، لكنها صارت حقيقة، منذ تقبلناها جميعا"

واصلت الصمت، قال:

"فلنتخلص من الجثة، سأنقذ رقبتك للمرة الثانية"

فتح أحد الأكشاك الصفيح، وأخرج معولين، ناولني واحدًا. وبدأنا الحفر.

قال بحزن:

"لقد كنت أحب هذا الكلب أيضا، وأحبني، كيف تصير المحبة البالغة كراهية بالغة يا سعيد؟"

"لأن المحبة تنفذ عميقا، كأنها تطعن القلب وتمزق الروح، المحبة ثقل، سكين نافذ، والأعور لم يتحمل سكينه، فغرزه فينا، الكراهية، هي نزع السكين، وأمل بائس في تضميد الجرح"

لم أقل هذا، بل قلت: لا أعرف.

واصلنا الحفر، نملة تدفن أختها بمساعدة ملك.

6

نفض البامبو التراب عن ملابسه ووجهه وأمرني أن أتبعه، ظل صامتا طيلة الطريق، يتأمل الأرض بعينين حزينتين، كأنه يود لو يخرقها، ولم يرفعها إلى السماء ولو مرة، ثم وصلنا إلى بيته، لم أدخله من قبل. كنت أعرف أنه من

شقتين مفتوحتين على بعضهما البعض في برج بناه الصعايدة على أطراف البياصة، وحصل عليهما ضمن شروط السلام التي فرضها كمنتصر عقب حرب العائلات الثلاث.

بيته شديد النظافة، ولأناقته لمسة أنثوية، رغم أنه لا يعيش مع أحد، وكانت الروائح الحلوة تفوح من أرجائه، على عكس رائحة الفسيخ النتن التي تنبعث من جسده.

استلقى على الأريكة، قال: فلتستحم، وتغير ملابسك، كي تزيل أثر الدماء.

توجهت إلى الحمام، منهكا كمن قطع الأرض هرولة، خلعت ملابسي، تسللت إلى البانيو، فتحت الماء، ولم يكن إلا سيل من حمرة قانية، ملأت الحوض، رأيت رأس حمادة الأعور تطفو عارية، هرولت مذعورا، فتعثرت بجدار الحوض، وقعت على رأسي، كان الله هو آخر من خطر ببالي قبل أن أفقد الوعي تدريجيا وببطء، أما صورة أمي وهي تسقط محترقة، فتكررت آلاف المرات، بكل الطرق الممكنة حتى أفقت بعد نوم طويل.

صحوت، لأجد نفسي فوق فراش البامبو، أرتدي روبا من حرير، نظيفا، يفوح مني المسك، بضمادة صغيرة تخفي جرح رأسي، حلقي يكاد يتشقق من العطش، وبطني تولول من الجوع، وروحي منهكة، وصدى صداع ثقيل يفتك برأسي، وجدت بجواري ملابس نظيفة ومكوية، ارتديتها وغادرت الغرفة.

رأيت البامبو مرتديا قميص نوم نسائيا، متزينا بمساحيق، جاثيا أمام تمثال ثريا، يبكي ويتضرع إليها أن تعود إلى الحياة، ففكرت أني لن أفلت حيا بما رأيته، رآني فأشار لي بالجلوس والصمت، ثم تابع صلوات غامضة، لما فرغ منها جلس أمامي بأريحية، وضع ساقا على ساق، وأشعل سيجارة محشوة، دون أن يعبأ أني أراه في قميص نوم، ثم شاركني سيجارته.

قطع الصمت بعد دقائق:

"لقد سلبتني روح ساعدي الأيمن، عليك ديته"

"وما ديته؟"

"أن تهبني روحا مكانه"

لم أفهم. أشار إلى التمثال قائلا:

"فلتحيها"

لم أندهش من طلبه، فنظرة الجنون في عينيه، تلك التي ابتلعته تماما، أكدت أنه يعني ما يقول.

"الله وحده يملك سر الحياة والموت"، قلت.

"ولقد أتاح منه قبسا إلى معلمك إدريس، ضوء خافت، ضعيف، لا يتيح الحركة، لكنه كان يكفيني"

"لا أعلم أي سر"

"أنت تملك الهبة، حتى لو كنت جاهلا بها"

رأيت بعيني أثر الحياة في تمثال ثريا، عندما قتلها الأعور، وأثره في تمثال البامبو وهو يقتله، لكن لا أحد يملك سر الخلق، وحتى لو امتلكه أحد، فلن يكون شخصا تافها، ضئيل الهمة، فقير الروح، بسيط العقل مثلي.

"علي أن أريك شيئا"، قال البامبو.

تبعته باتجاه باب كبير مغلق، خلف غرفة يستعملها كمخزن، فتحه، رأيت عشرات التماثيل التي تشبه تمثال ثريا، باختلافات بسيطة، كلها ميتة، دون ذلك الأثر الخافت للحياة، تأملتها مندهشا، كانت أكثر جمالا واتقانا مما صنعت، ولم أفهم من أين حصل عليها.

اقتربت أكثر، فميزت علامة إدريس وختمه على التماثيل، هرم داخل دائرة. لم أره يصنع شيئا شبيها في الورشة، أهو من ألهمني؟ أم أني أعدتُ إنتاج ما نسيت أني رأيته؟ ما ظننته فريدًا، ليس إلا نسخة أقل جودة، يالغبائي، إذا كان البامبو رآه وضاجع مثله في رحلته بالصحراء، فوجود التمثال أسبق من فكرتي عنه.

قال البامبو:

"ليست كأي تماثيل صنعها إدريس، كانت تحوي سرا، وقد علمته، أثر خافت لحياة الأنثى الوحيدة التي وقعت في غرامها، واستولدت من

داخلي الظلمة وطيور الفزع، كان لتمثالك الهيئة نفسها التي نحتها إدريس من أجلي، وتحوي أثر الحياة الذي لا يصمد أكثر من شهر أو اثنين، وربما لا يدوم إلا كساعة، أو تكون مثل طيوري محض شهاب خاطف، ما أن يولد حتى يموت.

عندما رأيت التمثال معك للمرة الأولى، لم أصدق أنك صانعه، ظننته آخر هدايا إدريس، الآن أعلم أنه أورثك سره"

"هذا لا يعقل؟"

"أتتهمني بالكذب أم بالجنون؟"

الجنون، لا ريب. قلت: "حاشا لله، لكن معلمي لم يمنحني أي أسرار، فقد كانت بساطة عقلي حجابا، ولم أنجح حتى أن أكون نحاتا جيدا مثله"

"تماثيلك تشهد عليك".

لذت بالصمت.

قال: "أتعلم، كلما كان إدريس ينبت الروح في تمثال، تموت امرأة في الحي، المرة الأخيرة، ماتت أمك في اللحظة عينها، من المحتمل إذن أني ضاجعت أمك"

نفرت عروقي بالغضب، متحليا بالحماقة لا الشجاعة، انقضضت عليه، طرحني أرضا دون عناء، دهسني بقدمه، فجمدني الفزع، لم تكن صورته

إلا صورة تمثاله الذي صنعته له: شجرة جافة كئيبة ووحشية، لها رأس ثور غاضب له ثلاثة قرون وذيل. جذعها من جماجم ضحاياه. وعينيه مجوفتين غائرتين بالعدم، كان يحاول أن يلد طيور الفزع بلا جدوى، رأيت ألمه، أدركت عنته، وعلمت أن ظلمة الجنون قد ابتلعته للأبد. قال:

"ستسمع كلماتي تلك للمرة الأخيرة، إن لم تحي حبيبتي، سأذبح حبيبتك: ثريا"

رفع قدمه عن جسدي المهان، استعاد هيئته، قلت يائسا:

"لا أعرف السر، لكني سأصنع تمثالا آخر.. لا دخل لثريا بالأمر"

"ليس هذا ما أبتغيه، أريد واحدا يحيا للأبد، إدريس كان بإمكانه أن يهب حبيبتي روحا لا تموت، لكنه راوغني كي أظل في احتياج دائم إليه، لكني تعلمت الدرس، لا موت مجددا"

بكيت عجزي عن حماية ثريا. بصق على الأرض قائلا:

"لا تبك كالنسوان" بدت عبارته مضحكة بقميصه الأنثوي.

"أمهلني بعض الوقت، لعل إدريس ترك لي دليلا"

"إذن من الأفضل ألا تضيع دقيقة أخرى"

غادرت شقته مهرولا، كمن يفر من الطاعون، نهبت درجات السلم نهبا.

في البياصة تأملت الأكشاك الصفيح لثواني، ثم واصلت الفرار من المتاهة. أين الله؟

7

ظللت أدور وأدور في الشوارع، آكل الطريق بغضب، ويأكلني، أتفحص الأعين، جريمتي على كل وجه، كل مزق، كل خذلان، خذلان عميق وغائر يثقب الروح، يخلف غضبا تافها، كلهم أنا، كلهم حمادة الأعور، بعين واحدة، مليئة بالخراء، الأمراض مسكونة بالاعتياد. لن ينتبه أحد إلى غيابه، كنملة دهست وسط ملايين النمل، وهكذا لو غبت، سافرت، ابتلعني الجنون، مت، قُتلت. من ينتبه؟ هل ستبكيني ثريا، وإلى متى؟ ستجد جسدا سواي، كل ما يتطلبه المرء كي يثبت حضوره هو شخصا يبكيه، وليس للأعور من يبكيه سوى قاتله.

يالله.. كيف صارت أحزاني على صغر سني رهيبة قدر جبل، وأنت يا الله شاهدي ومبتغاي ومقصدي، قدرت لي وأردتني رغم أن جهلي قدر صحراء قاسية، وقد سعيت فيها ولم أصل إلى النور بل الهلاك، ولم أعرف الفارق بين النعمة والنقمة والخير والشر والليل والنهار، هل أحببتني لضعفي، فبلوتني بأن تصير لذتي شوكة في قدمي، أم لسر أرت أن تودعه فيّ؟

أنهكني السير.

عدت إلى ثريا، سأعتذر لها عن كل شيء، حملت جسدها وروحها ثقلا أكبر مما يحتمله، سأعترف أن الذنب الأكبر هو أن يفقد المرء إحساسه بالماء ما أن يروي ظمأ جسده، فلا يبقى سوى مزيد من العطش والهلاك والجحود لأعظم هبة حملها شخص لآخر: جسده.

أعين الجاحدين وحدها هي ما تحوّل بستانا من اللذة إلى كيس قمامة لمني المرء وحكاياته وأحزانه، ما أن يفرغ حتى يفر، ألصقت بها خوفي وشبقي وخطاياي وضعفي، كي أنجو بوهم عفتي.

سأخبرها: علينا أن نهجر تلك الأرض الملعونة، التي يقبع كل شيء فيها ما بين الخلل والجنون، كمسافة علينا أن نقطعها كل يوم بتعثراتها الرهيبة، فلنرحل إلى أرض أخرى، لا تصنع منا مسوخًا كبيرة تحيا استحقاق العظمة واحتقار الذات، وتمحو الفارق بين البراز والحقيقة، بين أن تجد صوتك وبين أن تقطع حنجرتك قربانا لذنبك، لندفن في الهوة الكبيرة العصية على الردم، بين المكابدة والتحقق، المثال والممكن. تلك الهوة هي الخذلان، لقد صرت قاتلا يا ثريا، لا، لم أصر، بل كنت من الأزل، من الأبد، قتلت أمي والأعور، وأقتلك، وأقتل نفسي في كل لحظة، كل دقيقة.

لكني لم أقل لها كل هذا، فهي تعرف كل شيء، النمل لا يحتاج إلى كلمات، النمل له لغته، ووحده سيرث الأرض الخراب، ولن يقيم مُلكًا عظيما، سيكتفي بالسير والبقاء، دون أمل أو طموح أكبر، لقد اكتفينا من الخذلان.

قالت بعين شجاعة تفيض بلمعة الهذيان:

"لن أرحل من بيتي وملكي، هم سيرحلون".

الجنون على فراشي، فبادلته حبا بحب واستسلمت، قبلتها ببطء في البداية، ثم عصرت الردفين كما يعصر المرء بفمه ثمرة مانجو، ثم دفنت رأسي بينهما وغبت دون نية للعودة، حتى ارتفعت ثريا إلى ذرى اللذة، ثم عدت فتسلقت سلسلة الظهر، كنملة تتسلق جبلا لتخاطب ملكا، بهدوء، حتى بلغت تمام صلابتي، وكان صراخ ثريا مهيبا، يجلجل في الزقاق، وكانت لذتي عظيمة، تنبت من فرحها، لم أفكر إلا في سعادتها، كما أوصاني زوجها ولي الدين.

في ذروة اللذة، رأيت شيخي النمر، فأشحت بوجهي عنه، وأغلقت كل باب عليه، اتسعت أنيابه لالتهامي، فكشرت أنيابي في وجهه، زمجرت بجلال ومهابة بكل ما أحمله من غضب ولذة، فاستسلم حزينا، وطار من النافذة ليلتهم سواي.

لما قذفت مائي همست ثريا في أذني: شكرا.

لكني لم أنته بعد. صعدت وصعدت من جديد، ذُرى أبعد، مرة تلو مرة تلو مرة، دون شبع، ودون نهاية، كنت أنتحر، أقذف نفسي في قرارها كعصفوري الأعمى، باحثا عن اتصال أبدي للذة لا تنقطع، عن النبع السري للحياة، إن كانت السماء عصية فلحم ثريا في يدي، لو ذبت فيه

لانتهى كل شيء، من كل ثقب، وددت لو صنعت ثقبي الخاص، الذي لا يُغَيِّب جزءا من جسدها ويجعلنا جسدا واحدا، لكن أين مكانه؟ ولي الدين غبي، لا عطاء في الجنس، بل استعمال وأخذ، هكذا تفعل ثريا، وهكذا أفعل، ولولا الامتنان، لكان ذلك قتلا.

ثم انقشع الحجاب فرأيت، وفوق جسدها الذي صارت هاويته نعيمي، غصت في انغماس صوفي، حلقت في رؤياي دون خوف، أقبض على سر العالم، هذا امتيازي عن العالم، أني أرى الحلم كحقيقة، والحقيقة كحلم. أدرك أنني أصبحت الكل، أنني في السماء والأرض، أنني في المياه والهواء، في الوحش والطير، أنني رضيع، أنني في الرحم، أنني قبل الحمل، أنني الحضور في كل مكان، أرى أعماقا لا قرار لها.

أفقت من رؤياي على صراخها، أدركت أن مرادي هو أن أقتل نفسي فيها وبها، دفعتني بقوة، أطبقت يداي على رقبتها متشبثا بالسر، استكمال الحكاية، وسراب اللذة الأبدية، كادت أن تختنق، لولا أني أفقت لاستللت منها ضوء الحياة، كما فعل الأعور مع التمثال.

نظرت لي في رعب، وكان رعبي أشد.

قمت، ارتديت ملابسي، خرجت دون كلمة متجها إلى ورشة إدريس في البياصة، الله هناك، سيحميني من سوء نفسي.

8

مكثت في الورشة وحيدا مع حبات التمر، صنعت تمثالا للأعور، صخرة كبيرة بلا ملامح، تسبح الله. أمر البامبو أن توضع بجوار تمثاله، وأن ينحني أمامها كل عابر في البياصة تقديرا لشجاعة الأعور، ثم يبصق على الصخرة تذكيرًا بخسته.

سينفذ الناس أمره، حتى ولو لم يروا أمامهم إلا صخرة صماء، لكنهم مع الوقت والعادة، سيفقهون تسبيحها، سيبجلونها ويزردونها بالقداسة عينها.

مر يوم تلو يوم، شهر تلو شهر، من اليباس والانتظار، أذكر الله، أصلي، أقتات التراب، التمر لا ينفذ ولا يُشبع، وكانت تلك كرامة أخيرة، كلما فرغ كيس التمر، كلما امتلأ. صرت جلدًا على عظم، ولم تُقتل أي شهوة داخلي، بل تعاظمت، ولم أدع الله أن أدرك أي سر، بل أن ينجيني من متاهة الحكايات المبتورة، أن يخلصني من البامبو.

حتى جاءتني طرقات خشنة على الباب، كانت مهلة تسليم تمثال حي قد نفدت. فتحت الباب، فلم أجد إلا جوالًا ملقى على الأرض، وصبيًا يجري مبتعدًا، فتحت الباب، فرأيت رأس ثريا، وعلى جبهتها رسالة: أنت التالي.

حدقت في الرأس ذاهلا، تكاد تبتلعني بنظرتها الثابتة التي تتهمني

بقتلها، قذفتها فزعًا، لألوذ بالفرار من البياصة.

لكن لا فرار، كان سور البياصة قد انتصب عاليا ومهيبا، في جسارة تقتل أي جسارة، وأمل يبتلع كل أمل، يوقف الجنون بجنون أشد، دفعته غاضبا بلا جدوى، كيف يمكن للمرء أن يهزم روحًا من الإسمنت؟

9

غصت بين أكشاك متاهة البياصة، استوقفني مجذوب، أشار إلى جنابتي بإيقاع الفضيحة، صرخ: أشم ريح الجنب من على بعد ألف ميل، كما وجد يعقوب ريح يوسف.

طاردني ممسكا بخرطوم ماء، سببته وهممت بضربه، لكن سرعان ما استسلمت لدفق الماء، متأملا السماء والأرض في بلاهة. الاغتسال يطفئ شيئا، يُسكّنه، يلطفه، يثبت الزمن للحظات، لكنه أبدا لا يمحو ثقل الذنوب، ولا يطرد الحزن، ولا يردم النبع السري للوسخ.

جلست جوار المجذوب على الأرض، منهكًا أرتجف كعصفور من البرد، سبح بحمد الله، فابتسمت، قلع عينه اليمنى وقذفها في حجري، قائلا:

"لم تميزني يا أعمى؟"

كان شبح حمادة الأعور.

قلت في رعب: "اغفر لي قتلك"

"فلتحيني إذن"

"كيف، ولم أعرف سر الخلق بعد؟"

طلب مني أن أنظر بعينه اليمنى، ففعلت. وعبرها رأيت كل شيء على حقيقته:

رأيت الجنون قابعا في كل ركن، له هيئة اللطف، يمنعنا عنه حاجز غير مرئي، كسور البياصة. يدرك الواحد منا جنون الآخرين، ولا يدرك جنونه. هذا ما حدقت فيه أمي من النافذة، ودونته. رأت الأطياف الساكنة والشياطين المختبئة وبقايا الشهب السارحة والأرواح المغدورة التي مزقها الذنب فالتهمها الجنون، ومثلها رأيت، لقد صرت واحدا منهم. لكن أين منبعه؟

جلسنا نسبح الله ونستغفره لكلينا حتى ولج الليل النهار، فدفعني الأعور إلى حيث دفنته، لنستخرج جثته.

أمسك معولًا وحثني على الحفر، فواصلت ضربة تلو ضربة كالمجنون، كأني سأكتشف النبع السري للحزن، دون قدرة على التوقف، كرغبة اشتهتني واشتهيتها، ربما كنت أحفر قبرا لي بجوار الأعور، قبرا باتساع أحزاني الرهيبة، ربما ما لم أجده في السماء، قد يكون مختبئا في باطن الأرض.

تجاوز الأعور جثته، فواصلت الحفر مثله، حتى انكشف لي درج دائري ضيق، نصف مظلم، فهبطته.

اختفى الأعور، فأدركت أني صرت هو قبل أن يفقد عينه اليمنى.

أمامي وجدت ولي الدين، زوج ثريا، ببنيته الضخمة، أصغر بعشرين عاما. كان يحمل مشعلا، قادني عبر ممرات طويلة كأن لا نهاية لها.

على جانب الممرات غرف، ألف غرفة، ألف ألف غرفة، كألف ليل وكألف نهار، بدت كمتاهة أكثر تعقيدًا من أكشاك البياصة، ولم أدر كيف اتسعت لها تلك المساحة الضيقة من الأرض كثقب إبرة.

رأينا من بعيد ضوء نار وجلبة وضيوف ملك السمان ذكورا وإناثا، متحلقين حول شعلة من نار، عاريين من كل ملبس وزينة، يرتدون أقنعة أقرب للجدي، يتلون صلوات غامضة وراء ملك السمان، يقسمون أمام شعلة النار، أنهم سيلبون نداء شهواتهم الأعمق، من أجل ظهور إله غامض وغير مرئي إليه يتضرعون ويتوسلون.

غمس ملك السمان رؤوسهم في طست الماء، يمنح كل واحد منهم مشعلًا مطفأً، يغمسه في طست آخر فيخرج مشتعلًا.

حبسنا أنفاسنا وانتظرنا، حتى تَفرَّق كل واحد منهم في غرفة، واختفى ملك السمان في الممرات. سرنا، فرأيت تماثيل بالغة الجمال على حوائط المتاهة، ميزتُ فيها علامة إدريس: هرم داخل دائرة.

كنا نعرف ما نجوس خلاله، بل جئنا من أجله، غرف الشهوات، تصطاد شهوة صاحبها الأعمق، ومن أجلها يأتي الأثرياء من آخر الدنيا، كي يبرؤوا من المزق، أما السمان فلا شيء، محض مقبلات تحفز الشهوة، لم أتسلل مع ولي الدين إلى هنا لتلبيتها، بل لقتلها، كي نصل إلى سر الخلق.

سمعنا صوت غناء يذيب القلب من عذوبته آتيًا من إحدى الغرف، لم نفهم كلماته. ليست كطلاسم أو لعنات، بل لغة مخاتلة، أكاد أقسم أني قريب من معناها، لكن لا أتبين منها حرفًا، لغة إلهية، لكن ولي الدين أدركها، فهو المختار.

تبعنا الصوت، حتى وصلنا إلى مصدره، تلصصنا وأمعنا النظر، رأينا فتاة تطبخ في قِدر ضخم، وتغني، خمنا أن هنا يكمن سر خلطة السمان، وهنا يطبخ، بدا لنا أن الغناء المنسكب من فم الفتاة هو ما ينسكب في القِدر، ويمنح الطعام سره.

كانت سمراء، شابة، لها شعر غجري قصير، قدرت أنها لم تتخط الثامنة عشر. فاتنة، جسد وددت لو التهمته التهاما، فتاة لو قبّلتَ جسدها لذاب في فمك، أو هكذا تمنيت.

مرق سهم الغرام في قلبي نهائيا وإلى الأبد، رأيت الفتنة نفسها في عين ولي الدين، فشعرت بنغزة في قلبي.

لم تكن الفتاة إلا ثريا، أصغر سنا، أكثر نضارة، ولم يتسرب ماء حياتها بعيدا، مصبوبة بلا ترهل، نافرة ومستنفرة، جسد بكر كنبع لم يمس.

لم يتطلب الأمر أكثر من خطوة أسبق بها ولي الدين، لكنني تجمدت مكاني، أنا الذي ميزتني الحياة بالشجاعة، خائض الحرب، معارك الشوارع، لم أجبن لحظة في حياتي إلا الآن، أمام هذا الجسد وأمام عينيها اللتين سينقران بئر الجبن في قلبي ويكشفان منبعه.

سبقني ولي الدين بخطوة، وتبعته كظله، جفلت ثريا، وستكون المرة الأخيرة التي أراها فيها تجفل من شئ. توقفت عن الغناء وتقليب القدر الضخم، ظلت تنقل نظراتها بيننا في خوف، هددتنا بمعلقة القدر الضخمة، وبحراس المكان الذين سيمزقوننا إربا إن رأونا، لكن ولي الدين لم يجفل، فقد مزقه الغرام سلفا، أكانت تلك شهوته؟

كان على ضخامة جسده رقيق القلب، شديد البراءة، كأغنية حالمة، لا يقدر خطورة ما يقبل عليه، اقترب ببطء، تبعته، أشار لها أن تهدأ ليعرض عليها شيئا.

أشار إلى ظلي، اقتطع منه قطعة بيديه، ثم بدأ في تلاوة سورة الرحمن بصوته العذب، فخرجت من فمه ثمار لها هيئة حرف النون، ثم شكل من ظلي عصفورًا.

ابن الكلب. كان ذلك سره الوحيد، الغالب، القاهر، ورقته الرابحة

التي لا قبل لي بها، وقد استعملها في الغزل لا في الوصول إلى سر الخلق.

لم يحصل على تلك الهبة من أي شخص، بل من سورة الرحمن شخصيا، قابلناها سويا، اتخذت هيئة شيخ نوراني. ولم أحزن لأنها لم تخترني لتلقي السر، إلا في تلك اللحظة، ربما كنت أجدر بصون الهبة، أو أن أنال ثريا عبرها.

أدهشتها اللعبة، وهدأ روعها، قضمت من ثمرة حرف النون، فلفظتها لمرارتها، لكن ولي الدين شجعها على قضمة تلو أخرى أقل مرارة، ثم قطفت الثمار، وقلبتها في القِدر الضخم، حيث خلطة السمان.

فارت صفحة القدر بدم كثيف، كنت أعلم أن العقاب آت لاستعمال السر في غير محله. أيقظتهما الفورة من حلمهما الناعس وغرامهما التافه والرهيب، تراجعا، احتضنا بعضهما كعاشقين هدد صفوهما الرعب، لا تعرف أيهما يحمي الآخر.

تقدمت، قلت لعلها تنظر أي شجاعة أحملها في قلبي.

حدقت في القدر بثبات فرأيت الهول، انعكست صفحته كمرآة للمستقبل: أرواح تهيم صارخة، دبابات تفرم الأجساد، ونيران تلتهم المكان، وملك جديد يقوم، عرشه من جماجم، يسيل من شدقيه الدم مبتسمًا في أمل يقتل كل أمل، وجنون يسد المنافذ على كل جنون، وجسارة تلتهم كل جسارة، كما التهمت عصا موسى أفاعي السحرة، ثم رأيت في صفحة القدر شخصا يجري في صحراء من عطش، مهموما بردم آبار من الدماء، وحوله تنتشر

القبور، والسماء تصم أذنيها من هول الصياح، كان يشبهك يا سعيد، كانت تلك رسالة، وكان لابد من رسول.

تراجعت من هول ما رأيت، ظهرت الكآبة على وجهي، سألتني ثريا عما رأيته، فأخبرتها. قالت: إذن ابن آكلة الأكباد حقيقة. ثم تكومت في ركن، وجسدها يرتعش، قبل أن تعود إلى الغناء بكلماتها المخاتلة، والتي تعني: حررني والملك لك.

سألها ولي الدين: "من أي شيء أحررك، وأي ملك؟"

قالت ثريا: من الجنون، سيجتاح البياصة، سيأكل أطرافنا كالجذام، أما المُلك فمطعم السمرة، ملك السمان المزيف، وسره في الغرف الأخرى، وأموال لا أول لها من آخر.

ثم تابعت في خجل:

اسمي ثريا ولست دميمة، أنا أكثر جمالا وسحرا مما ترون، أحفظ الأشعار والحكمة، ربيت لأنادم الملوك، وكان آخر ملك حقيقي عرفته، إلياس السوري، أبي. قتله السمرة الذي احتجزني مع أمي، وماتت أمي من القهر، ألقى علي ملك السمان سحرا يجعلني دميمة في أعين الآخرين حتى لا أفكر في الهرب، وأظل أطبخ له السمان الذي يحرر الروح.

قال ولي الدين: لكن جمالك سكن قلبي منذ اللحظة الأولى، ربما سحر ملك السمان ليس في أن يراكِ الآخرون دميمة، بل أن تري نفسك كذلك.

قلت بعصبية: لم نأت من أجلها، ولقد أفشيت السر في غير محله. كنت أعني عكس ذلك تماما، وددت لو ضيعت كل شيء من أجلها. فقط لو أنها أعطتني إشارة واحدة.

واصلت ثريا:

"يأتي ضيوف ملك السمان كل ليلة، يصلون عبر ممارسة أفحش الذنوب وأكثرها انحرافا من أجل ظهور إلههم: ابن آكلة الأكباد. يغمسهم ملك السمان بالذنب، فيحرر عقلهم من الجنون، لكن ما يتحررون منه يسلب أهل البياصة عقولهم، يوما ما سيعبر الجنون السور، وسيندفع كسيل، لن يترك أحدا، وسيبدأ بي"

طلب منها أن تهرب معنا، لكنها أبت أن تخرج إلا إذا "طبخت رأس ملك السمان في القدر".

خرجنا من الغرفة بعد أن عاهدها ولي الدين على العودة، وأن يحررها بأي ثمن، لكننا لم نجد الطريق، ابتلعتنا متاهة الممرات الطويلة، كانت الغرف تدور وتتبدل من حولنا، فقدنا أثر غرفة ثريا، وانقطع غناؤها، عوت تماثيل إدريس كذئاب جريحة، وطاردتنا أرواح تقطر بالدم، وأشباح مختلة تائهة للأبد بين ممرات المتاهة.

في ذعر فتحنا كل غرفة قابلناها، فرت منها طيور الفزع، حلقت غاضبة ووحشية في الممرات الطويلة، غرف الشهوات التي تبلغ ألف ألف غرفة،

كألف ألف نهار وليل، رأينا الفواحش كلها، الذنوب كلها، أغربها، وأكثرها انحرافًا، كل ما حرم علينا فوق القبو، ودفعنا للجنون، كان بلوغ غرفة ثريا مجددا هو أملنا الوحيد.

واصلنا الركض في يأس هربا من مطاردة طيور الفزع، حتى حوصرنا أمام ضريح، سكنت تماما وعادت إلى غرفها، قيدتنا أغلال غير مرئية، ثم رأينا مشاعل الضيوف العُراة تتقدم نحونا وأمامهم ملك السمان، يسوق ثريا بعنف، صارخا:

"كم علي أن أقتل من عشاقك المتلصصين"

أجابته بتحد: "حتى يأتيني أحدهم برأسك في طبق" بصق عليها، ثم استدار نحونا، قائلا:

أتعلمون عقوبة التسلل إلى القبو دون إذن؟

قال ولي الدين: أعلم.. الموت.

"بل أكلكم أحياء. قربانا للإله"

أطبق الصمت، حلق العصفور الذي صنعه ولي الدين من ظلي، تأمله الحاضرون بدهشة بالغة. أشارت ثريا إلى صانعه بفخر.

تشاور ملك السمان مع ضيوفه، قبل أن يطلب من ولي الدين، أن يصنع تمثالا من ظل لإلههم الغامض غير المرئي، كقربان يفدي به حياته.

قال ولي الدين: "قرباني أفدي به نفسي وصديقي. ومهرًا لزواجي من ثريا"

أجابه الملك: "لا أحد يحصل على كل شئ، فلتختر"

هل تردد ولي الدين، قبل أن يختار ثريا، لا أتذكر، لم يعد يهم أصلا.

فك ملك السمان قيده، طاف ولي الدين على الأجساد التي تطهرت من ذنوبها بذنوب أشد، اقتطع من ظلالهم، عجنها معا، ساعة تلو ساعة ساعة، حتى شكل تمثالا عملاقا من ظل ساكن، قرأ من سورة الرحمن، حتى انتهى من صناعة تمثاله، أول صورة لابن آكلة الأكباد، لم تكن إلا صورة تمثال البامبو، هكذا تشكل، ظل ضعيف لشجرة جافة كئيبة ووحشية، لها رأس ثور له ثلاثة قرون وذيل، عصفور ولي الدين حط على قضيب ينبع من الظل، تحرك الظل بضوء الحياة الضعيف، ظل سيحتاج إلى جسد، جسد يحتاج إلى روح.

قال ملك السمان: "تلك أول خطوة في الكتاب لظهور الإله قربان البراءة"

سجد ضيوف ملك السمان، لإله من ظل. سألني:

"ماذا لديك لتفتدي به نفسك؟ لم أجد إجابة"

رفع ملك السمان سكينه فوق رقبتي، حدقت في عينيه بثبات. ثم قلت:

شجاعتي، هكذا حصل البامبو على شجاعته الأسطورية، التي أنقذته في حرب العائلات الثلاث.

قبل أن أقدم قرباني، تفرست ثريا في ملامحي بقوة تكاد تخترقها، وروحي كانت تهفهف معها.

تلك هي المرة الأخيرة التي ستنظر إليّ بلا كراهية، ولم أفهم مغزى النظرة، كانت شيئا بين العجب والتقدير، وأردته الغرام ولم يكن، لكن بتلك النظرة نسيت الهول، وحل المحبوب في كل شيء، فثريا ولعي وفنائي، وبها أحببت النساء جميعا وكرهت النساء جميعا، وحولت لذتي إلى المانيكانات والعرائس والتماثيل، ولا أتخيل فيها إلا وجها واحدا: وجهها، ولا أرتجي إلا جسدا واحدا: جسدها، أستل منه الحياة، وفيما بعد، سأظل أتبعها في كل لحظة، من الطريق ومن النافذة، أتنصت على صوت لذتها مع ولي الدين الذي صار زوجها وعدوي، أتسلل إلى شقتها وأسرق قطعة من ملابسها الداخلية، وأتقلب في فراشها، بعيني العوراء أراها نورًا، وبعيني اليسرى أراها نارًا.

لما غادرها ولي الدين بعد سنوات قليلة من ذلك اليوم، بعد أن أكله شبح الجنون عقابا على هتك السر، كنت أراقب عشاقها كطفل بائس، ثم أسبها مع الآخرين بينما أشتهيها بقلب في مجمرة، كأني ما خُلقت إلا لاجتياز عتبها، مرة واحدة لانت لي. فتحت أبوابها وأبدت الاستعداد للعطاء والنهل، لكن ذكري الذي اعتاد أجسادها الميتة، جبن أمامها.

خرجت من عندها وفي قلبي يعتمل الخزي والغضب، فصرت أقتل بعضا من عشاقها في عتمة الطريق لأنهم بلغوا ما لم أبلغه.

عندما اخترقت السكين عيني اليمنى، فطارت معها شجاعتي ولم يبق إلا الفزع والخسة، كانت تلك النظرة التي رمقتني بها ثريا هي آخر ما رأته عيني الميتة، الشيء الوحيد الذي أملكه منها.

***

أفقت من رؤياي فوجدتني في قلب البياصة الخالية إلا من البامبو جالسا فوق عرشه، أمامه تمثال ثريا، وتحت قدمه رأسها المغدور، وبيده اليسرى بلطة حادة لم يجف منها أثر الدماء، تمثاله ينتصب في قلب البياصة، عاليا، يزدري العالم ويزدريه العالم.

تقدمت تجاهه بثبات، روحي تقطر بكراهية تعميها عن كل خوف. قال البامبو:

"ألم يحن أوان تسديد الدين يا سعيد.. أن تهبني سر الخلق"

"لم أعد أخشاك"

"ألم تنبئك رؤاك من أنا بعد؟"

"ابن آكلة الأكباد، مسيخ آخر الزمان، من ذنوبنا تشكّل، عبر ثلاثة قرابين: البراءة منحتك الظل، وأنت لم تكن شيئا سوى العدم. عين

الأعور منحتك شجاعتك الأسطورية وأنت لم تكن شيئا سوى الجبن. جهلي وهبك جسدا من طين، وأنت لم تكن إلا ظلًا باهتا لصورة"

"ما زلت أعمى البصر والبصيرة يا سعيد"

قام من عرشه، حاملا بلطته، بعينين لا تعدان إلا بالهلاك، فارتعدت، قال باحتقار:

"أما زلت تخشى الموت؟"

"بل المعرفة"

"لتخض الطريق إذن"

"لأفقد عقلي كولي الدين، أم لتخرق عيني كالأعور"

"لقد حصل كل منهما على ما أراد، ولي الدين على ثريا، والأعور على المكانة، فلتحصل على ما أردت"

"أن أصير متشردا مجذوبا"

"بل أن تصير إلها، خالقا، أن تفنى فيه ويفنى فيك، فلتحي قتلاك: أمك، الأعور، نفسك"

"بل لأهب الخلود لتمثالك، عبر القربان الناقص: المعرفة"

"تلك رسالة، ولابد من رسول"

"لن أكنه"

أعطاني البلطة، حدق في عيني، قائلا:

"ألا تضمني لقائمة ضحاياك؟ أليس هذا ما تريده؟"

"لست بقاتل"

جثا على ركبتيه في وضع المذنب. وقفت حائرا. قال:

"هيا.. كن رجلا وافعلها.. ألم تعلق كل شرورك علي، انتقم إذن، خلصهم يا مهدي، من ابن آكلة الأكباد"

"لقد اكتفيت من القتل"

"لا تلم نفسك، اللوم على من لم يجعل طريقا للخلاص سوى الذبح، النور والظلمة بداخلي، لكنه اختارني للظلمة وحدها، لتلد مني طيور الفزع، حررني من اللعنة، كما دفعني إليها"

"كانت الظلمة خيارك، على الأقل نجوت من المزق"

"بتحويلي إلى مسخ؟"

لذتُ بالصمت، طاف شيخي النمر، همس: فلتقتله، لب نداء روحك يا مهدي آخر الزمان، الغائب الذي يظهر ليملأ الدنيا عقلا كما ملئت جنونا، أقِم العهد، ارفع رأسك وسِر، طريق واحد أمامك لتحررنا من الحصار"

بكيت، قال البامبو بحنان:

"فلتقبل رسالتك يا مهدي، فلترفع الذنب وتقبل التوب"

"أنا؟ أنا ضئيل الهمة فقير الروح"

توسل إليّ بعينين، يشقهما الرجاء، أكاد أقسم أني رأيت رأس ثريا المقطوعة تلومني على ضعفي.

أمسكت البلطة، هويت بها فوق رأسه، ملبيا نداء روحي بجريمة لا لبس فيها، دوت ساعات البياصة بدقات رهيبة، كدوي الرعد وضربات القيامة، وانفتح السور، وتحرر الجنون.

تفتت جسد البامبو، لم يكن جسدا، بل تمثالا من زجاج هش، طارت منه طيور الفزع، ودوامة من الظلمة، لقد خُدعت مجددا، لم يكن هو ابن آكلة الأكباد، كان أتفه من أن يكونه، هذا الجسد الرهيب ليس إلا كيس فارغ، مآله الفناء، ولقد انتهى ابن آكلة الأكباد الحقيقي من استعماله.

مضيت عابرا السور، من باب ضيق لا يقود إلى إلا الهلاك، واصلت السير بشك ثقيل الوطأة أن لا جائزة في نهاية الطريق، قبضت على الشيء الوحيد الذي أملكه، هبتي العظمة: رؤى المختل.

الجبل

انفتحت بيأسي على الفيض الإلـهي، ركعت، ثم سجدت، ناجيت ربي:

"سأسدي إليك معروفا، سأحررك من ابن آكلة الأكباد"

***

سرت وحدي، وفي الطريق وزعت المعجزات والكرامات بلا اكتراث، شفيت رجلا أبرص، حولت الماء إلى خمر، أبصر على يدي ثلاثة عميان، زال عن أعينهم الحاجز غير المرئي للجنون، خروا موتى، فأحييتهم.

سرت في الهواء، فوق ماء البحر، كلما خطوت خطوة كلما ازداد أتباعي، بإشارة من يدي، أوقفت ساعة كبيرة تحبس الزمن، تعطلت ساعات المدينة كلها، تجمد الزمن برهة، قبل أن يتحرر جارفًا كسيل من المطر، يغسل الحي.

صرخت كمختل نصف عار، في البرية:

"فلتقتلوا ابن آكلة الأكباد"

تقدم إلي ولد خائف، ثم شيخ عجوز، ثم امرأة، عشرة، مائة ألف، مائة ألف مذنب، توقفت عن العد، كلما لمست أحدهم صار عصفورًا، ليُحلق في السماء هاربا من أرض الجنون، شكلوا سحابة سوداء جميلة من العصافير وهذيان الحمقى، تمطر قيحا، دما، أفاعي، صديدا، خراء سائل، لتتخفف من ثقلها، شربتها، تحملتها جميعا، شربتها، فتفتحت روحي.

وصلت إلى جامع العطارين، فتحت باب المئذنة، صعدت سلالمها، خطوة تلو خطوة بلا تردد، أعلى المئذنة.

صرخت:

"يا حبيبي، أتعرف كم نفسا قتلت كي أراك، كم من الأرواح التهمت، كم من جوقات الشياطين وثورات الأبدان والنجوم عبرت.

كل شيء مبعثر، مخلوط، بين التراب والنار والماء والهواء، والأمزجة شريدة، تائهة، وتلك حقيقة رأيتها، ولم أرها، رغم أني رأيتها، وقد لا تكون إلا وهما.

اليقظة نوم، والنوم يقظة، الجسد طيف والعالم وهم، والكون خيال، والجوهر غامض، نفيس وزائف، لا وصول له إلا بحريق القيد، والقيد أنا، والنار إن أحرقت قيدي تزول أناي أم أدرك أناي؟ النار تحرق وتنير، أتُصفي الخبث، أم تجعلنا رمادا؟

الآن، أنا أنت، وأنت أنا، فتَحرر من أجلي، خض الطريق، اكشف السر، تسلم بذور كلماتي، اعرف ذاتك، حررها من جسدك، من روحك، حطمها، وكن لا شئ"

سمعت صراخ المحتشدين أسفل المئذنة، كي يمنعوا المختل من القفز، قلت:

"تحملت ذنوبكم، أما التوبة فبيد قابل التوب"

هبطت سلالم المئذنة إلى الشارع، رأيت الرعب، كان الناس يتدافعون، أتوا من شقوق في الأرض وهاوية في السماء، مقيدين بأغلال كثيفة وغير مرئية.

رأيت ظلالهم تركض كخيول في سباق نحو حريق هائل، حافل بأبهة الخراب، لم تنجح كل الظلال في الهروب من قيد أجسادها، فظلت تنبح بقلب منكسر وشجاع، الروائح القذرة للأجساد التي فرت ظلالها، صارت كابوسا، وصعدت كغيمة إلى السماء تستعد للانقضاض على كل شئ.

كنت مرعوبا، وظلي يحاول الفرار مثلهم من الجنون، قيدته إلى عمود إنارة، لكن شيخي النمر ظهر لي مجددا، فك القيد، قائلا:

"أنت لست سوى ظلك، رغبته في الفرار أصيلة، إنه خلاصة ظلمتك، ولا يتشكل منك، بل من نور سواك، أنت مصدر عتمته، وقيده، وظيفته أن يذكرك بحقيقة واحدة: أن لا وجود لك"

تبعت ظلي كأي مختل إلى هاوية.

في البداية، كانت خطواتي غير متزنة، سقطت عدة مرات، معانيًا التعرق وصعوبة التنفس، أوشك قلبي على التوقف، وتاقت روحي إلى الانسحاب في قنوط غير عابئة إن كان مصيري الالتحاق بأبدية النور أو الجحيم أو العدم.

صعد ظلي أعلى المئذنة، هدد بما جبنت عن فعله، الانتحار قفزا، كان ذلك مخيفا، أأظل حيًا إذا فعل؟ أغاظتني ابتسامته غير المكترثة بأي شيء، فعلها، فانخلع قلبي، وتألمت ضلوعي، أما الظل فتفتت أمام عيني إلى ظلال لا يشبه أحدها الآخر، ولا واحد منهم يشبهني.

ميزت ظل شيخ الجامع، البامبو، أمي، الأعور، ملك السمان، ثريا، ألف ألف ظل كألف ليل وكألف نهار. الغريب أني ميزت ظلك قبل أن أراك، كان مسحوقا تحت وطأة ظلال أخرى، وكان مسخا، بم تنفعك البلاغة الآن؟

تحيرت عندما هربت ظلالي في كل مكان، ولم أعرف أي طريق أسلك، لكن ظل ذا ابتسامة طفولية وعينين يلمع فيهما الهذيان، قال دون كلمات: فلنلعب.

نفضت تراب سقوطي ويأسي وامتلأت روحي بحدة العزم، سأصطادها واحدا تلو آخر، شعرت كما لو أني قبضت أخيرا على الصراط المستقيم، مفتاح العالم، وكان ذلك محض وهم.

انفتحت لي بوابة الزمن، فلا حاضر أو ماضي أو مستقبل، صار الزمن سائلا، كشراب مخلوط بالفرح والمرارة، بالحياة والموت والأمل والخيبات، بالشوق العفي والعنة القاتلة. دعوته: إني مغلوب فانتصر.

عبر أحد ظلالي ضفة نهر، فتبعته ماشيا على الماء كمسيح.

لما صرت على الضفة الأخرى، أبصرت جماعة كبيرة من الناس، ظننتهم عابرين ضالين ومحبين لله مثلي، ينتظرون شيخهم ليدلهم على طريق الصراط، لكن في حقيقة الأمر كانوا يبحثون عن مكان يصلح للهو، رأيت ظلي مختبئا بينهم، يمني نفسه بليلة سعيدة. فلما دنوت منهم قلت:

"لن يعبر أحد من هنا قبل أن يعترف أن جمال الله لا مثيل له، وأن الدنيا قبيحة بما زينت"

تأملوني قليلا في دهشة، ثم أدركوا حريق الجنون في نبرتي ورماده في عيني. قالوا:

"ونعم بالله". رغم نفورهم. هموا بتركي قبل أن أفسد مزاجهم بالكامل، تابعت في إصرار:

"لن تمروا من هنا قبل أن تقروا إن ثريا هي أجمل نساء الأرض، وإني ما بليت إلا لأن جمالها لا يتحمله إنس ولا جان، فلتقروا وتشهدوا بذلك يوم قيامة الأرواح، ويوم ينادي المنادِ، ويوم يسألني الجميل معذبنا بالجمال، أقول أنتم حجتي"

لم يهابوني تلك المرة، رغم التصميم المخيف في عيني، من أجل هدف عظيم وتافه. سبوني وهموا بالرحيل، تشبثت بملابسهم، منعا لظلي المختبئ من الفرار.

أبرحوني ضربا، ولما أدركوا قوتهم في ضعفي، تنافسوا على مَن يوجعني أكثر، ثم مضوا بعيدا، لكنني كنت قد كورت قبضة يدي على ظلي الهارب. ابتسمت منهكا في انتصار.

تقدمت أكثر لأصطاد ظلا جديدا، مررت بطابور طويل متكدس، عرفت أن في نهايته شيخ يعد بأن يرشدهم إلى نبع الحقيقة.

تأملت وجوه الواقفين المكسوة بالرعب من الخذلان، وقسوة الأمل.

صرخت فيهم:

"لكن الطريق إلى الحقيقة، ليس من هنا، اتبعوا ظلي تجدوه" لم يتبعني أحد. قلت:

"سأمضي وحدي"

زلزلت ثقتي بالطريق بعض المنتظرين، فاقترح أحدهم أن يعطوني أسئلتهم، وأن أترك سؤالي معهم كمراهنة بائسة.

وافقت، دونت أسئلتهم:

"لماذا يبلى الجسد يارب؟ لماذا لا يكون الماضي كخط من الطباشير، فنمسحه ببراءة؟ هذا سؤال تتفرع منه الأسئلة، لماذا يثقلني كل شيء؟ ما الذي يجعل الشيء شيئا؟ لماذا يكتب على بعضنا الخسران المبين فلا يحوز الدنيا ولا الآخرة؟ لماذا هناك ذباب؟ هل أنا ذبابة؟ هل تراني نملة كما يراني الناس؟ لماذا حشرت كل تلك الأسئلة في رأسي؟ ما الذي يفصل الرب عن العبد؟ والنور عن الظلمة؟ والسرمدي عن الهالك؟ لماذا يبول المرء من موضع لذته؟ لم خلق الواغش والأسياد؟

لم المؤمنـون قلـة والجحيم للجميع؟ لماذا تلسـع النار وتـضيء؟ كيف تحرق ما خلقت؟"

ألف سؤال، كألف ألف ليل ونهار، تزيد القائمة ولا تنقص:

"لماذا كلما كشفت كذابا طالت أرنبة أنفي؟ لماذا لا تحرق أعدائي العصاة؟ ولم سبقت الاستعاذة البسملة؟ كيف يمكن لي أن أساعدك؟ ما أهمية جهنم إن كنا نتنفس سعير الدنيا؟ ما الذي جعل الجسد قيدا لا انطلاقا؟ والروح مزقا لا سَكينة؟ والسماء بُعدًا والأرض مفازة مهلكة؟ ما الذي علي حذفه من الأشياء فتبين؟ ما الغائب الذي بإضافته يطفو الضوء؟ كيف يصير الزمان على خلوده قاتلًا يتربص؟ والمكان على اتساعه كثقب إبرة؟ ما الذي يجعل النور معارج، والمعارج حيرة. وعلى رأسها ألف وعل، ألف شيطان، ألف بدن، نجوم تشتت وتبدد؟ وإلام الوصول؟ إلى سور الحقيقة أم الحقيقة كسور؟ السور نهاية للحجب، أم بداية لها؟ كيف ندفع روحًا من الإسمنت بجسد هالك وروح ممزقة وزمن قاتل ومكان أضيق من ثقب الإبرة؟"

حملت أسئلتي وواصلت طريق جمع الظلال.

حط أثر أحد ظلالي فوق النافذة الوحيد المضيئة في عمارة من سبعة طوابق، هل هبط من أجلي سلما من السماء كما يليق بنبي، أم ارتفعت الأرض حاملة إياي إلى النافذة كما يليق بولي، أم تسلقت المواسير كما يليق بلص؟ كان الظل هناك، لا يضحك ولا يبكي، فقط ينظر في صمت، حائرا فيما يبدو.

تلصصت من الشباك، فوجدت أبا وابنته يمارسان الجنس، كنت أعرفهما، كانا جيراني، كيف عبرا إلى الضفة الأخرى من النهر.

كانا ذائبين في المتعة، ماذا لو عرفا أن متلصصا من الشباك، ينظر ويراقب.

فكرت، أن من فضائل رحمته، أننا لا نراه وهو يرانا، فكل الألعاب ستفسد، وسيصعق البشر من هول الخجل، شعرت بنفور بالغ منهما، حام ظلي حول الجسدين، لم أمهلهما حتى تفور اللذة وتصعد إلى سدرة العدم، اقتحمت الغرفة، فانتفضت الابنة، كأن سياط الجحيم قد جلدتها. تجمد الأب مكانه ذاهلا بعد أن ضبط بالجرم المشهود. كنت البريء الوحيد في الغرفة، رغم تلصصي واقتحامي لسترهما.

تجاهلتهما، وتبعت ظلي الملتصق بباب الغرفة، كان يرتعد،، قفزت الفتاة من النافذة، بكيلوت أحمر. سمعت صوت تهشمها، إلى ألف قطعة من زجاج ملون، واصل الأب ذهوله، معلقا عينيه بسقف الحجرة، حجاب السماء.

أمسكت بظلي وغادرت، الجيران يهرولون على السلم، في فزع، صرخة الفتاة لا زالت تدوي حول رأسي كحبل مشنقة.

هرولت مبتعدا عن الشارع، وظل الجريمة يخنقني. ربما كان عدوي ساعة أو ساعات أو أياما طوال، لم أتوقف إلا عند برزخ من مقابر.

جلست هناك وبكيت على جريمة تلصصي وقتلي للفتاة التي هتكت سترها،

كيف حملت ذنوبا أكبر من ذنب البنت التي ضاجعت أباها، وكيف تحولت في لحظة من متلصص إلى قاتل، من باحث عن الحق إلى مدان به؟

أضواء الجريمة طاردتني، وتحولت إلى سارينات شرطة تقودها ملائكة عقاب يطالبوني بتسليم نفسي إلى الجحيم، نباح كلاب مخيف يهدر بصوت كالنفير:

"سلم نفسك يا سعيد.. ماتحاولش المقاومة المكان كله محاصر"

أشهرت مسدسا وهميا، وأنا أحملق في الظلام موقنا بدنو الأجل، فاجأني صوت ثريا بينهم، كشادية في فيلم اللص والكلاب:

"سلم نفسك يا سعيد.. إنهم يعرفون كل شيء ولا نجاة منه إلا إليه"

بزغ ملاك الموت كنور في الظلمة، قال:

"اختر الموت لتحصل على العدالة"

"العدالة؟ سأخبره: إنما هي فتنتك"

"لتترج الرحمة"

"أرغب في الفهم لا الرحمة"

"الرحمة في التسليم أما العناد فملعون بلا أمل"

"أهذا جزاء خوض الطريق؟"

أطلقت رصاصاتي الوهمية في جميع الجهات، فانهمر عليّ الرصاص كالمطر، ثم غصت في الظلام، مهرولا، من جديد، باحثا عن ثقب إبرة ومفر من الحصار.

رأيت ظلًا لي، يشير إلى بلاعة مكشوفة الغطاء، ظننتها القبر والنهاية، فهبطت يأسا، كان سريان الخراء المذاب كثيفا وسريعا كتيار نهر، تقاذفني، ولكن يا لدهشتي، تحملت رائحته دون شكوى وبقوة هائلة، وسرعان ما استوى لدى أنفي كل فارق، ولم أشك أن جسدي غُطي تماما بخراء المدينة، استسلمت للموت بلا أمل في العدالة أو الرحمة، فأنا لم أعرف في أيهما نجاتي وفي أيهما هلاكي.

وجدت منفذا فصعدت من أسفل سافلين، فلم أجد إلا الصحراء مجددا مسافة شاسعة بلا أمل في الوصول، لا شيء أمامي، لا شيء خلفي، هنا حيث كنت من قبل بجسد البامبو، ولم أقو على مواصلة الطريق.

سرت، أياما، شهورا، ألف نهار وليل، توقفت عن العد.

***

المسافة قاصمة، والشمس تجلد الظهر وتجفف الطريق، ولا سبيل لماء. العُرَى مفصومة، والوصول سراب. كثبان الرمل تصبح مع الهذيان وحوشا جائعة، والسحب طيورا جارحة تنتظر وليمة الموت، ولا أجنحة لي لتحملني في حجتي.

عظام جسدي النحيل تأن تحت وطأة هزالي، وقدماي تفتتان على صراط الجحيم، جلدي الأسمر يحترق، حنجرتي تتشقق من العطش، والعرق الساخن لا يباعد إلا الوعد ولا يرطب إلا فتوة الهمة، وأنفاس أنفي الأفطس تسحب معها الروح إلى بئر حالك.

كانت خطواتي تتثاقل، خطوة بعد خطوة، وكان ذلك يعني الموت.

ما الذي يثقلك يا فقير الروح، يا هزيل الإرادة، يا ضعيف الهمة، يا بسيط العقل. أهو الطموح؟ أي خبال انتظرته وانتظرك، الآن تعرف لم يصير الطريق وعرا والمسالك مخيفة، كي يبتلع أمثالك. فلتخفف إذن من ثقل الطموح والأمل، تتخفف معه من الجنون، واحجب بصرك عن اتساع السماء والأرض، وتمن ما يليق بك: شربة ماء. هذا هدف يناسبك، ويحي خطوك الميت. ينبع الأمل من قتله، وينصب اليأس أوتاده من توهم القدرة، لكن الأمل في الماء يبدو طموحا مستحيلا، يسكن جنباته الغرور.

لا متاهة إلا نفسك، فكيف فكرت في إنقاذ الآخرين من المتاهة؟

ما الفرق بين الهمة والإرادة؟ العقل والجنون؟ وما يهمك يا سعيد إن كنت لا تملك كليهما، الإرادة للمريد، الهمة للولي. الإرادة أن تقهر النفس على إتيان ما تكره لترضي من تحب، والهمة أن تُقبل النفس بالمحبة نحو من تحب. العقل أن تدرك ضعفك، والجنون أن تنكره. الخبال أن تتجرد من كل شيء إيمانا بحلم راودك. خاب وخسر من ضلله الإيمان. لا تقل ذلك يا سعيد، الإيمان لا يضل إلا الكافرين. ابتسمت بصعوبة، مع ورود هذا الخاطر المضحك إلى عقلي، وهَبَّ بصيص من البهجة كنسمة خفيفة في قيظ روحي، ثم توالت في ذهني خواطر المجدفين، ولم أقو على الاستعاذة من الشيطان، فتراءى لي ودودا وطيبا لكنه كان غاضبا مني لسبب لا أعلمه، لذا عذبني بشرب الماء أمامي، وبالتهام السمان الشهي، ومضاجعة ثريا. أمسك بلحيتي، ثم اختفى.

لم أغضب، كنت متفهما، ومحرجا من عدم تمييزي لنداء روحي، لو نجوت، سأعود إلى ما تقبله الروح وتستسيغه النفس.

رأيت سرابا له وجه أمي رائقا كأيام شبابها قبل أن تلتهمها الأيام، سمعت صوتها الحنون يهمس:

"اصدع واقترب".. كانت تحمل شربة الماء، لن أصل، أعلم أنه سراب، لكن ثم شيئا دافئا في أن أرى وجهها مشفقا ومتألما لألمي.

أتذكر كيف ماتت يا سعيد؟ كيف أنسى أكثر ذنوبي سرية، قد أخفي تلك الذكرى عن العالمين، لكن كيف أخفيها عن نفسي، لم تغب عني أبدا، لا تحتاج إلى صحراء وعطش وتيه وسراب كي تحضر.

الآن، أستسلم للموت وأنفي عن خاطري الأمل في شربة الماء، أصدع وأقترب من أمي، حيث سأنال خلاصي، أغمض عيني، وانتظر لقاءها من جديد.

تلك المرة لن أتردد في الاعتذار لها، أما أمام الله فسأكتفي بالصمت، وإن كنت حيرانا إن كان علي أن ألقاه بسيماء الخجل أم العتاب.

بلغت السراب، فانبثق النور، فرأيت.

"معبد مبني على حصن عال، فلا يسقط ولا ينكشف ستره"

***

كانت بساطة المعبد تجلجل برهبة الأبهة، والصمت يحيط كل شيء

بالقداسة، والفراغ قابلة للآلهة، صعدت سلالم المعبد المنحدرة درجة تلو درجة، مثبتا النظر على أعمدته المهيبة التي تحمله كأنها تحمل الأرض.

دلفت إلى قاعة، ولم أكن أملك إلا التقدم أكثر في ظلمة النور تلك، يتساقط مني الماء الوسخ والخراء واليأس.

عبرت ممرا طويلا، رأيت شخصا في نهايته يحمل مشعلا، وينظر إلي كأنه ينتظرني منذ أبد.

واصلنا التقدم نحو بعضنا البعض. خطوة من حامل المشعل وشبرا مني، فتقدم ذراعا فلاحقته هرولة، وما أن التقينا حتى انحنيت شاعرا بالضآلة.

لم يكن حامل المشعل إلا صورتي في مرآة كبيرة مصقولة، لم تكن ما أنا عليه الآن، بل روحي الحقة، الهائلة والعافية والتي تحمل قوة الكون، شديدة الجمال والبهاء، مبثوثة في جسد عملاق وكامل، وشيئه الكبير الجاهز لمضاجعة كل شيء كماكينة لا ترحم، يتدلى منه بلا خوف أو خجل، ثم رأيت السنوات في المرآة وهي تقرضني كفأر وتحولني إلى جسد ممسوخ بروح مختلة.

سرعان ما استعاد حامل المشعل هيئة الجسد البهية ووهج الروح، شعرت بطغيان رغبة السجود له، فشلت في أن أجد كلمات مقدسة ومضمونة لمناجاته، فانخرطت في بكاء التطهر، حيث يمهد الصمت لاستقبال الكلام، والسكون لحرارة الحركة، والفراغ لتلقي الفيض، الفرصة التي أهدرها كل

مرة بالإنكار والذوبان وسط أصوات الآخرين الزائفة وفيضهم الفارغ وحركتهم المشوشة التي علي مجاراتها.

ثم سمعت صورتي المثالية تأمرني بصوت بدا لي إلهيا:

"ارفع رأسك وانظر"

قمت من سجودي منحنيا على ركبتي، كمبتهل إلى إله، وكعاشق يطلب ود محبوبته، رافعا رأسي لأشاهد، فقالت الصورة:

"هكذا، إن الأمور كلها ترغب في المشاهدة، وإلى هذه الغاية تحدق، ازدر الموت وارع الحياة، ما الموت إلا ولادة للروح، وما العالم إلا رحم، وما أنت سوى جنين، وما ملاك الموت إلا قابلة، الأجساد صدف، والأرواح در، وما نفسك إلا شرارة من النور الإلهي الأسمى، فاترك ما يبلى إلى ما لا يبلى، انبذ الجهل لا الخطيئة، فإذا صرت عارفا صرت حرا، والحر لا تكبله الخطيئة"

مالذي يُعجز قدمي عن امتلاك كل شيء بتلك البساطة، ربما لأن الثمن هو فقدان كل شيء، فما العقبة إلاي، وجودي ذاته، هو المعضلة، لا الرب ولا الطريق ولا الحقيقة، لقد مزقت تحت سطوة شيء ما، شيء مهول، أعمق من معرفته أو الجهل به، شيء معقود من أسلاف الأسلاف كهرم فوق كاهلي، كمعابد من حجارة شديدة الثقل، من كلمات شديدة الوطأة والقداسة والجمال والبلاهة.

لكن تلك المرة بدا كل شيء واضحا، فإن كانت العقبة هي ذاتي، فلأحطمها

إلى ألف قطعة، وجدت حجرا ثقيلا، يقبع على الأرض وحده، كأنه ينتظرني منذ الأبد، اتجهت إليه، حملته بجسدي الهزيل، لم يكن أثقل مما أحمل من أسئلة. عدت نحو المرآة، وقذفت صورتي بأقسى ما استطعت من قوة، فأحدثت شرخا ضعيفا، لم ألن بل عاودت الكرة، مرة تلو مرة تلو مرة حتى فتتها تماما، وتناثرت واشتبكت أنصال الزجاج المنثور بجسدي فسال الدم والقيح وفرت الأفاعي.

ثم سمعت هذا الهتاف:

"الآن تصل"

لا لم يكن صوتي، بل صوت حارس عجوز، تكشف فراغ المرآة المحطمة عنه. نصف عار، حليق الرأس، داكن البشرة، عليه تجاعيد شجرة أبدية، موفور الصحة رغم اتكائه على عصا، كان شيخي إدريس.

قال:

"كيف وصل رجل مثلك، ضعيف الهمة، مكسور الإرادة، بسيط الروح، فقير العقل إلى نبع الحقيقة؟ هذا خطأ، خطأ كبير. فلتدع الله أن تنجو من اختبارك الأخير"

اقتادني إلى محكمة من سبعة قضاة، لم أميزهم، فقد أداروا لي ظهورهم، لكنهم بدوا كسبع سلاطين، وكانوا يجلسون واحدا وراء آخر في اصطفاف عجيب، فلم أعرف، إن كانوا مرتبين وفق القوة والأهمية، صعودا أم هبوطا أم أن جلستهم عشوائية، خلف السلطان السابع بوابة كبرى مغلقة.

انتبهو أن لا ظل لي فسألوني:

"أين ظلك؟"

"هجرني، وتفتت إلى ألف ظل"

سمعت الهمس يدور بينهم، كيف لشخص مثله أن يتحرر من ظله، ولم ينصفني إلا صوت واحد:

"ربما يكون هو من ننتظره"

سألني السلطان الأول: كيف صرت؟ قلت: حقيرا كروث البهيمة.

سألني السلطان الثاني: كيف أصبحت؟ قلت: في الحيرة.

سألني السلطان الثالث: وما عذابك؟ قلت: الجهل.

سألني السلطان الرابع: وما عرفت؟ قلت: العظمة.

سألني السلطان الخامس: وما العقبة؟ قلت: الذنب.

سألني السلطان السادس: وبم وصلت؟ قلت: باليأس من ذاتي.

سألني السلطان السابع: بم تخوض؟ فقلت: عاريا من كل شيء.

استدار لي السلاطين السبعة، قالوا بصوت واحد ارتج له المعبد:

"طوبى لك يا بن النور، قد تجليت لك وحدك من بين كل الناس، آمرك بأن تنطلق لتهزم الجبل، ثم تعود هاديًا لأولئك الذين يهيمون في الظلمة، لكل البشر اللذين تكمن في دواخلهم روح العظمة، لعلهم ينجون مهتدين بعقلي الكامن فيك، أقم أسراري ولن تسقط من تلك الأرض، لأنني أنا عقل الأسرار ومادام العقل لن يسقط، فإن أسراري لن تسقط.

هذه الأرض الجليلة، مقر المذابح الإلهية ستملأ منذ الآن بالقبور والجثث فقط. وعندئذ ستترك الآلهة معابدها هاربة للسماء ويصبح الناس غرباء

وكذلك أعمالهم، سيفضل المرء الظلام على النور، والموت على الحياة، ولن ينظر أحد للسماء، لن يبدو كل شيء مضحك وفقط بل مظهر براق فارغ، إن هذا النوع من البشر ستكون أرواحهم في خطر.

اسألهم: لماذا سلمتم أنفسكم إلى الموت، بينما تملكون القدرة على نيل الخلود. فلتخبرهم أن بإمكانهم إزاحة الجبل(*)".

قلت:

"لن يصدقني أحد، أنا عبد تافه، ضئيل الهمة والإرادة، سيظنوا بي الجنون، سأتعرض للكراهية والاحتقار، للموت"

قال الصوت:

"ستُمنح علامة، سر الخلق، لكن تذكر.. المعجزة التي ستحملها فتنة، فلا تستعملها إلا بحكمة"

اقترب إدريس مني، عمدني بالذبح، فأحيا قلبي، حاملا سرا رهيبا، كسر الخلق، همس في أذني:

"بإمكانك إزاحة الجبل، التجلي الأخير لابن آكلة الأكباد"

"كيف؟"

"لا أحد يملك الإجابة سواك"

اختفى المعبد، وفارقني السلاطين وهم يشعون بنور سماوي، رفعت

(*) متون هرمس بتصرف.

عينـي إلى السـماوات وسـبحت بحمـد ربي، عـبرت عاريا مـن كل شيء، إلا من جمرة في قلبي تكاد تحرقني.

***

انفتحت البوابة، فصرت قريبا جدا من النور، الحقيقة الإلهية. كان الرب قريبا وعلامته أنغام عذبة، تختلط فيها الجوقات البشرية مع السماوية، لولا جبل مهيب أحجاره من ذنوب، وحشي، كئيب وجاف، له ألف ذراع يغلي بالنيران، ومن حوله تحوم طيور الفزع، للجبل حجر ناقص إلا من جمرة في قلبي، القربان الذي يهبه الروح، ليبلغ الخلود، بأن يمتد قسرا في أرواح الآخرين.

قال الجبل:

"اصدع واقترب، ضع جمرة السر واسجد معترفا بذنبك"

تجمدت مكاني.

دوى صوت الجبل كالرعد وضربات القيامة، صرت أرتجف، أذكر الله، يا حي يا حي أحي موتاك فالأمل شح، يا قيوم يا قيوم أقم نجواك فابنك ضئيل الهمة والإرادة، لا مكان له في الأرض، فكيف تنزع منه مكانه في السماء؟ الطريق شديدة الوعورة، فكيف أخطو إلى ما لا سبيل إلى معرفته؟

ربما لم أقل كل هذا بل صرخت: يا رب. صرخة عفية ارتجت لها السماوات والأرض، ربما ألهمتني النور، لكنها لم تزحزح الجبل.

قال الجبل:

"أتظن في نفسك الفرادة؟ انظر إلى أصابعك يا سعيد، ألم تفكر أبدا أنك لم تحصل عليها إلا بالخطأ؟"

نظرت إلى أصابعي، كان على حق. ضعفت همتي، فتقدمت نحوه، انطفأت الجمرة المشتعلة في قلبي، حاملة سر الخلق، فصارت حجرا في يدي، صخرة صماء، لم أعد أفقه تسبيحها.

"ضعها.. صخرتك، ليست إلا شيئا تافها"

كانت بالفعل شيئا تافها، وسط أحجار الجبل الرهيبة اللانهائية، لمحت سربا من النمل، أسفل حجر، يغني بلغة مخاتلة، لا تدركها إلا باقتحام العقبة، فك رقبة، وكنت الملك.

رفعت رأسي قائلا:

"قد يكون حجري تافها، لكن سلطتك لن تكتمل دونه"

قال بصوت كالرعد: "اسجد"

قلت مستنكرا: "أأسجد لم خلقت بيدي؟"

عرض علي الجبل، صورتي الكاملة، العظيمة البهية، التي رأيتها في مرآة حامل المشعل، أما صفقته الكبرى كانت نجاتي من أرض الجنون، المسافة الرهيبة التي علينا أن نقطعها يوميا بتعثراتها الرهيبة، الهوة الكبرى بين المكابدة والتحقق، المثال والممكن، نجاة من الخذلان.

قال ملاطفا:

"ألا ترغب في الألوهة، العقل، العظمة، أصابع تصنع عصفورا بالغ

الجمال، لا يلفظه الناس؟"

"بل تحقق ذاتي، كعصفور شديد القبح والأصالة"

تقدمت تجاهه وبدأت أنقل حجرا تلو حجر.

قال: "ما الذي تظن أنك تفعله؟"

"أزيح الجبل، كي أرى النور، ولأنهي متاهة الآلام"

"أنت لا تعرف أي خطأ ترتكبه، هل تظن من الخير أن يتحرر الحمقى من الهموم وأن يعفوا من الآلام؟ السر للمختارين"

"أنت تأفل.. وأنا لا أحب الآفلين"

واصلت نقل الأحجار، أطلق علي طيور الفزع، هددني أن تلتهمني عاصفة ثلجية، حدقت في الرعب بشجاعة، سال الدم من شدقيه مبتسما في أمل يقتل كل أمل وجنون يسد المنافذ على كل جنون، وجسارة تلتهم كل جسارة، انفجرت آبار الدماء من الصحراء، وحولي انتثرت القبور، وفرت منها أرواح مغدورة تصرخ، صمت السماء أذنيها من هول الصياح.

لم ألتفت عن مهمتي، لم أكترث بالوصول.

عرفت أن الجبل بلغ تمام يأسه، وأن النور الإلهي أقرب مما أظن عندما بدأ يرجمني بأحجاره، فواجهتها جميعا بقامة منتصبة كمختل عار، بعظمة وكرامة وجنون.

لم آبه لصراخه:

"أنت كمن يسكب ماء بحر في فنجان".

قلت بصوت تسكنه الطمأنينة:

"أليس هذا ما يفعله المحتل؟".

أحمد الفخراني

القاهرة

2017/11/18



المؤلف في سطور

- أحمد الفخراني: روائي وصحفي مصري، من مواليد الإسكندرية 1981، قبل أن يقيم في القاهرة عقب تخرجه من كلية الصيدلة عام 2006.
- عمل بالصحافة في صحف البديل، أخبار الأدب، الثقافة الجديدة، الشروق، المصري اليوم؛ حيث عمل كمدير فريق السوشيال ميديا ونائب رئيس قسم التحقيقات الاجتماعية، دوت مصر؛ حيث عمل كرئيس لقسم الثقافة. ويعمل الآن صحفيًا حرًا. أسس موقع قل المستقل، أول موقع مصري وعربي لمقالات الرأي.
- نشرت مقالاته في صحف ومواقع عربية ومصرية: المدن، السفير، الأخبار اللبنانية، موقع هنا صوتك، مراسلون وغيرها.
- فاز بجائزة هاني درويش: جائزة العين المفتوحة 2013 التابعة لموقع مراسلون الألماني فئة (أفضل مقال).
- فازت روايته (ماندورلا) بجائزة ساويرس 2016، المركز الثاني.

- صدر له ديوان بالعامية المصرية (ديكورات بسيطة) عام 2007، ثم (في كل قلب حكاية بورتريه) عن دار العين عام 2009، والمجموعة القصصية (مملكة من عصير التفاح) عام 2011، عن دار نهضة مصر، ثم رواية (ماندورلا) عن دار العين في عام 2013، رواية (سيرة سيد الباشا)، بيت الياسمين 2016، رواية (عائلة جادو) عن دار العين في عام 2017.

البريد الإلكتروني:

bahrbasha@gmail.com

في روايته «**بياصة الشوام**» يمد أحمد الفخراني نظره إلى أقرب ما يمكن، عميقًا إلى جوهر معيار الجمال وقيمته؛ هو لا يكتفي - إخلاصًا لمهمته في خلق الجمال على غير مثال - برصد المعيش أو بتحليله، هو لا يقف حتى عند إعادة تشكيله.

يبدع «الفخراني»، بخفة وبراعة، حلقة جديدة في تجربة جمالية خاصة.

«سعيد» بطل البياصة الإشكالي لا يرتحل في الأسطورة ولا يعيش التجربة، بل هو نفسه الأسطورة وتجربة الخلق القلقة، «سعيد» لا يسأل ولا يغامر، بل هو بذاته سؤال الأصالة يواجه المكرر والاعتيادي، في أسطورته الواقعية. إن جاز القول.

يعلم هذا **البطل الملعون** تمامًا أن غايته بعيدة على قربها، **مستحيلة على وجوبها**. كما يقول «تخبرهم أنك ستنحت عصفورًا، فيجيبونك أن فكرتهم عن العصفور قد اكتملت ولا حاجة بهم للمزيد، تقول لكن عصفوري شيء آخر.. لماذا يغفرون شيئًا غريبًا كأصابع جميلة وفاتنة على جسد قبيح ولا يغفرون لي تماثيلي التي لا تشبه العصافير؟».

أحمد الفخراني روائي

وصحفي مصري، مواليد، 1981،

نشرت له من قبل روايات «ماندورلا»، «سيرة سيد الباشا»، «عائلة جادو»، وفازت روايته ماندورلا، الصادرة عن دار العين بجائزة ساويرس فرع شباب الأدباء، عام 2016.

الفوتوغرافيا وتصميم الغلاف: أحمد اللباد



